الفصـل الخامـس

الحرب الباردة

إذا كان النصف الأول من القرن العشرين قد اتسم بالعنف، فان ابرز ما يميز النصف الثاني منه غياب الحرب العالمية الثالثة. كانت هناك حرب باردة بدلاً عنها، فترة خصومة شديدة من غير حرب فعلية، وكانت الخصومة من الشدة والتوتر بحيث جعلت الكثيرين يتوقعون اندلاع صراع مسلح بين الدول الكبرى. وحدث قتال إنما في الحواشي والأطراف وليس بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي مباشرة، امتدت الحرب الباردة أربعة عقود: من ١٩٤٧ الى ١٩٨٩، لم تشهد سوى القليل من المفاوضات الجادة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي، بل لم يعقد مؤتمر قمة واحد بين ١٩٤٥ و١٩٥٥، وفي عام ١٩٥٢ وصف (جورج كينيان) السفير الامريكي بموسكو عزلته في السفارة بما يشبه فترة اعتقاله في برلين أثناء الحرب العالمية الثانية، أما المراحل المتآخر ة من الحرب الباردة في السبعينات والثمانينات فقد اختلفت كثيراً، فجرت اتصالات كثيرة بين الامريكان والسوفيت، وصاروا يتفاوضون باستمرار حول معاهدات الرقابة على السلاح، وجاءت نهاية الحرب الباردة بسرعة تماماً بعد تغيير السياسة عند مجيء ميخائيل غورباتشوف الى الحكم عام ١٩٨٥، وإنهاء سيطرة السوفييت على أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩، ثم تفكك الإتحاد السوفيتي نفسه عام ١٩٩١.

الردع والاحتواء:

ان ما يجعل الحرب الباردة استثنائية هو كونها فترة توتر مطول لم تنته بحرب بين الدولتين المتنافستين، فهناك تفسيرات متنوعة لاسباب هذه الحالة، سنناقشها في ما يلي:

ان الحرب الباردة تقدم بسبب مسارها غير المألوف منظوراً فريداً للعلاقات الدولية، وتضيء القوى المحركة (DYNAMICS) لعدة خيارات سياسية خارجية ممكنة قد تعتمدها الدول: خيار (الردع) وخيار (الاحتواء).

الردع يعني، ان تثني احداً عن عمل بالتخويف، وليس هـو بجديـد علـى الحـرب البـاردة، فعلى مر التاريخ كانت البلدان تبني جيوشاً وتعقد التحالفـات وتطلـق التـهديدات لـردع البلـدان الآخرى عن مهاجمتها، وخلال الحرب الباردة، وقدوم الأسلحة النووية اعتمدت الـدول الكـبرى طريقة ثني الآخر ين عن الاعتداء بواسطة التهديد بدلاً من الردع بعـد وقـوع الاعتـداء، لقـد ربـط ردع الحرب الباردة كلياً بمسألة (الردع النووي) لكنه امتـداد أيضـاً لمنطـق تـوازن القـوى، وكـان الردع بالتهديد النووي أحد السبل التي طرقتها الدول الكبرى لمنع أحداها الآخرى، مـن تحقيـق تقدم يخل عندئذ بتوازن القوى بـين الطرفـين، هـذا الـردع كثـيراً مـا زاد مـن حـدة التوتـر بـين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي، كما سنرى، وليس سهلاً بالضرورة بيان كيفية عمل الردع، فهناك دائماً تسبب مغلوط او كاذب، فإذا قـالت أسـتاذة ان محاضراتـها تبعـد الفيلـة مـن قاعـة الدرس، فمن الصعب ان نكذب ادعاءها، إذا لم يدخل فيل القاعة ابـداً، ويمكننـا اختبـار مـدى صحة هذه الدعاوى باستعمال تكنيك التضاد: هل من المحتمل ان تدخل الفيلة قاعة الدرس؟

لقد اقترن مبدأ الردع بسياسـة (الاحتـواء) فكـان الاحتـواء، أثنـاء الحـرب البـاردة يشـير الى سياسة امريكية معينة تهدف لاحتواء الشيوعية السـوفيتية بغيـة نشـر نظـام إقتصـادي وسياسـي ليبرالي عالمي، ولكن الاحتواء، كالردع، لم يخـرج الى الوجـود مـع الحـرب البـاردة، وانمـا كـان المصطلح ينتمي الى تلك الفترة، ذلك ان الاحتواء أداة رئيسية في السياسة الخارجيـة منـذ قـرون، ففي القرن الثامن عشر حاولت الدول الملكية المحافظة الأوروبية احتواء فلسـفة الحريـة والمسـاواة التي بشرت بها الثورة الفرنسية، وقبل ذلك حاولت الكنيسـة الكاثوليكيـة، في تصديـها لحركـة الإصلاح الديني، احتواء انتشار الحركة وأراء مارتن لوثر، ان هناك أشكالاً مختلفة من الاحتواء، فهو يمكن ان يكون هجومياً او دفاعياً، ويمكن ان يكون عسكرياً بشكل حرب او أحـلاف، او ان يكون إقتصادياً بشكل حواجز او عقوبات تجارية، وقد تذبذبت الولايات المتحدة، أثناء الحـرب الباردة، بين انتـهاج سياسـة احتـواء للشـيوعية موسـعة وسياسـة تقتصـر علـى احتـواء الإتحـاد السوفيتي.

ثلاثة مغريات من الحرب الباردة:

من او ماهو سبب الحرب يكاد يكون هذان السؤالآن موضع جدال عنيف بين الفقهاء وواضعي السياسة منذ بدأت الحرب الباردة، هناك ثلاث مدارس فكرية في هذا الموضوع (التقليدية) و(التعديلية) و(ما بعد التعديلية).

يرى (التقليديون) – الذين يعرفون أيضاً بأسم (المتزمتين) او (المتشددين)– ان الإجابة على سؤال: من بدأ الحرب الباردة؟ بسيط تماماً، ستالين والإتحاد السوفيتي، ففي نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الدبلوماسية الامريكية دفاعية، في حين كان السوفييت عدوانيين توسعيين، وقد افاق الامريكيون ببطء على طبيعة التهديد السوفيتي.

ما الدليل الذي قدمه التقليديون؟ اقترحت الولايات المتحدة غداة الحرب العالمية الثانية نظاماً عالمياً شاملاً وامناً جماعياً من خلال الأمم المتحدة، ولم ينظر الإتحاد السوفييتي الى الأمم المتحدة بجدية كبيرة لانه أراد التوسع والهيمنة على نقطة نفوذه في شرقي أوروبا، وبعد الحرب سرحت الولايات المتحدة قواتها، في حين أبقى الإتحاد السوفيتي جيوشاً كبيرة في أوروبا الشرقية، واعترفت الولايات المتحدة بالمصالح السوفيتية، فحين اجتمع روزفيلت وستالين وتشرشل في يالطا، عام ١٩٤٥، تخلى الامريكان عن مصالحهم خدمة للمصالح السوفيتية، لكن ستالين تنصل عن موافقاته، وخاصة بعدم سماحه بإجراء انتخابات حرة في بولندا.

وجاء المزيد من التاكيد على نزعة التوسع السوفيتية حين تقاعس السوفييت عن سحب قواتهم من شمالي ايران بعد الحرب، ليجبروا على الآنسحاب أخيرا تحت الضغط، وفي عام ١٩٤٨ استولى الشيوعيون على حكومة تشيكوسلوفاكيا، وفي عام ١٩٤٨ و١٩٤٩ حاصر السوفييت برلين في محاولة لآخر اج الحكومات الغربية منها، وفي عام ١٩٥٠ عبرت جيوش كوريا الشمالية الشيوعية الحدود الى كوريا الجنوبية، ويرى التقليديون ان هذه الأحداث أضعفت الولايات المتحدة تدريجياً أمام التهديد التوسعي السوفيتي وبدأت الحرب الباردة.

التعديليون، الذين كتبوا أول ما كتبوا في الستينات والسبعينات، يعتقدون بان الامريكان سبب الحرب الباردة، لا التوسعية السوفيتية، ودليلهم على ذلك ان العالم لم يكن ثنائي

الأقطاب بعد الحرب العالمية الثانية، فالإتحاد السوفيتي كان اضعف بكثير من الولايات المتحدة، التي زادت الحرب من قوتها وكانت تملك أسلحة نووية لا يملك السوفييت شيئاً منها، وفقد الإتحاد السوفيتي بحدود ثلاثين مليوناً من سكانه، وانخفض إنتاجه الصناعي الى نصف ما كان عليه عام ١٩٢٩، وقد اخبر ستالين السفير الامريكي (افريل هاريمان) في تشرين الأول ١٩٤٥ بان السوفييت يعتزمون التحول الى الداخل لاصلاح ما لحق بهم من أضرار، واكثر من هذا، كما يقول التعديليون، ان تصرف ستالين في العلاقات الخارجية غداة الحرب اتسم بالاعتدال، فحاول كبح جماح الشيوعي ماو تسي تونغ للاستيلاء على السلطة في الصين، وفي الحرب الأهلية اليونانية حاول كبح جماح الشيوعيين اليونانيين وسمح لحكومات غير شيوعية في المجر وتشيكوسلوفاكيا وفلندا.

وينقسم التعديليون الى فئتين، (لينة) و(صلبة) ويؤكد التعديليون اللينون على أهمية الأفراد ويشعرون بان وفاة روزفيليت في نيسان ١٩٤٥ كان حدثاً حاسماً، لان السياسة الامريكية اتسمت بالخشونة والتصلب بعد مجيء (هاري ترومان) الى الرئاسة، ففي أيار ١٩٤٥ أقدمت الولايات المتحدة بتهور على قطع برنامج الإقراض والتأجير لمساعدات سنوات الحرب بان أمرت سفناً متوجهة للموانيء السوفيتية بالعودة، وهي في منتصف الطريق، وفي مؤتمر بوتسدام، مدينة قرب برلين، في شهر تموز عام ١٩٤٥ حاول ترومان تهديد ستالين بالتلويح بالقنبلة الذرية، وفي الولايات المتحدة تحول الحزب الديمقراطي من مواقف اليسار والوسط الى اليمين، وفي عام ١٩٤٨ طرد ترومان وزير زراعته (هنري ولاس) الذي دعا الى تحسين العلاقات مع السوفييت، في حين كان (جيمس فورستال) وزير الدفاع الجديد في إدارة ترومان، من اشد المعادين للشيوعية، ويقول التعديليون اللينون – او المعتدلون– ان هذه التغييرات للمسؤولين تساعد على فهم الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تزيد من معاداة السوفيت.

التعديليون المتشددون لديهم إجابة مختلفة، هم لا يرون المشكلة في الأفراد، بل في طبيعة الرأسمالية الامريكية، فـ(غبرييل وجويس كولكو) و(وليام أ. وليامز) مثلاً، يذهبون الى القول ان الإقتصاد الامريكي احتاج الى التوسعية وان الولايات المتحدة خططت لجعل العالم مكاناً آمناً، لا

للديمقراطية بل للرأسمالية، فرواج السيطرة للإقتصاد الامريكي لم يحتمل وجود بلد، أي بلد، يحاول ان ينظم منطقة إقتصادية مستقلة ذاتياً، لقد خشي الزعماء الامريكان تكرار أزمة الثلاثينات، ففي غياب التجارة الخارجية قد يحل ركود إقتصادي كبير آخر، وكان (مشروع مارشال) لمساعدة أوروبا مجرد سبيل لتوسيع الإقتصاد الامريكي، وكان السوفييت مصيبين حين رفضوه باعتباره تهديداً لمنطقة نفوذهم في أوروبا الشرقية، فالامريكان، على حد تعبير وليامز، كانوا دائماً يفضلون سياسة الباب المفتوح في الإقتصاد الدولي لانه طريقهم للدخول.

أما (ما بعد التعديليين)، الذين ينتمون الى فترة أوآخر السبعينات والثمانينات ويمثلهم (لويس كادس) فلهم تفسير آخر، إذ يخطئون التقليديين والتعديليين قائلين انه لا أحد يتحمل مسؤولية بدء الحرب الباردة، لقد كانت حتمية لا مفر منها او شبه ذلك، بسبب بنية توازن القوى ثنائية القطبين بعد الحرب العالمية الثانية، ففي عام ١٩٢٩ كان العالم متعدد الأقطاب، وفيه سبع دول كبرى، ولكن بعد الدمار الذي خلفته لم يبق سوى دولتين عظمين: الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي، وخلقت الثنائية القطبية وضعف الدول الأوروبية بعد الحرب فراغ قوة انجرت إليه الدولتان العظيمتان، وكان لابد ان يتصادما، إذن لا جدوى من البحث عمن يتحمل المسؤولية، حسب رأي ما بعد التعديليين.

كان للسوفيت والامريكان أهداف مختلفة غداة الحرب، فقد كانت للسوفييت ممتلكات ملموسة... أراضي، وكانت أهداف الامريكان غير ملموسة لا تقترن بالأرض، بل بالأوساط، كانوا مهتمين بالسياق العام للسياسة العالمية، واصطدمت أهداف المتلكات بأهداف الأوساط حين نادت الولايات المتحدة بإقامة نظام (الأمم المتحدة العالمي) والإتحاد السوفيتي يسعى لتعزيز نطاق نفوذه في أوروبا الشرقية، غير ان هذه الاختلافات بالأسلوب ليست (وفق ما بعد التعديليين) سبباً لان يشعر الامريكان بإثم الخداع لان الولايات المتحدة استفادت من الأمم المتحدة.

قد يكون السوفييت أوجدوا لانفسهم نطاق نفوذ في شرقي أوروبا، لكن الولايات المتحدة كان لها، هي الآخرى، نطاق نفوذ في نصف الكرة الغربي، ويقول دعاة (ما بعد التعديلية) ان كلاً من الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي كانا ملزمين بالتوسع لا بسبب الجبرية الإقتصادية التي

شدد عليها (التعديليون) بل بسبب معضلة امن الدول في نظام فوضوي موغل في القدم، فلا الامريكان ولا السوفيت كانوا مستعدين للسماح لبعضهم البعض بالسيطرة على أوروبا مثلما لم تسمح أثينا للكورنثيين بالاستيلاء على اسطول كورسايرا، وتستشهد جماعة ما بعد التعديليين لهذا الغرض بما قاله ستالين للزعيم اليوغسلافي (ميلوفان جيلاس) عام ١٩٤٥: ان هذه الحرب ليست كالحروب السابقة، من يحتل منطقة يفرض عليها نظامه الاجتماعي، فكل واحد يفرض نظامه بمقدار ما يستطيع جيشه الوصول إليه[١].

وبعبارة آخرى، فان دولة ما تستعمل قواتها العسكرية لتفرض مجتمعات مثل مجتمعها لتؤمن سلامتها في عالم ذي قطبين آيديولوجيين، لقد قال روزفيلت لستالين شيئاً مماثلاً في خريف العام ١٩٤٤: في هذه الحرب على مدى الكرة الأرضية لا توجد فعلياً مسألة سياسية او عسكرية لا تهم الولايات المتحدة[٢].

وتقول جماعة (مابعد التعديلية) ان البنية ثنائية الأقطاب هذه أفرزت حالة تصاعد خصومات: مواقف متشددة في بلد تقابلها مواقف متشددة في البلد الآخر، وكلاهما صار ينظر الى خصمه على انه يشبه هتلر في الثلأثينات ومع اشتداد تصلب النظرة تعمقت (الحرب الباردة).

سياسة روزفيلت:

أراد فرانكلين روزفيلت تجنب أخطاء الحرب العالمية الأولى، لذا طالب باستسلام ألمانيا من دون قيد او شرط بدل إحلال سلام على غرار معاهدة فرساي، أراد نظام تجارة لتجنب سياسة الحماية التي أضرت بإقتصاد العالم في الثلأثينا ت وساهمت في إشعال فتيل الحرب، وان تتجنب الولايات المتحدة ميلها الى العزلة التي أضرت بها كثيراً في الثلأثينا ت، وتنضم الى عصبة أمم جديدة وأقوى من سابقتها بشكل (هيئة أمم) لها مجلس أمن قوي جداً، لقد كان

---

[١] ميلوفاديبلاس ، أحاديث مع ستالين، ترجمة (مايكل بتروفتش)، كاليفورنيا، دار هاركورت، ١٩٦٢ ، ص١١٤.

[٢] رالف ليفرنغ ، الحرب الباردة، ايلينوي، دار هالاف ديفيدسن، ١٩٨٢، ص١٥.

(كوردل هل) وزير الخارجية الامريكية لأغلب سنوات الحرب، رجلاً أميناً على مبادئ ولسون، والرأي العام الامريكي شديد الحماس لمشروع الأمم المتحدة.

واحتاج روزفيلت الى دعم خارجي من قبل الحزبين لموقفه الدولي، فعلى الصعيد الخارجي كان بحاجة لاقناع ستالين بان الآنضمام الى الأمم المتحدة يلبي حاجاته الأمنية، وقد اتهم روزفيلت بسذاجة التعامل مع تخطيط ما بعد الحرب، لم يكن تخطيطه ساذجاً، بل بعض تكتيكاته، فقد امن بمشروع الأمم المتحدة اكثر من اللازم وبالغ في احتمال الوقوع في (العزلة) والاهم من هذا وذاك انه قلل من شأن ستالين، ظاناً انه يستطيع معاملة ستالين مثلما يعامل زميلاً من الساسة الامريكان يلف ذراعه حول كتفيه بروح الزمالة.

لم يدرك روزفيليت ان ستالين طاغية (قتل باسم الشعب الملايين من الشعب، لكي يحمي نفسه من هتلر ليوقع معه ميثاقاً ويقتسم معه غنائم الحرب، ومثل هتلر يشرد ويصفي ويستعبد الشعوب المجاورة ويقف جانباً متشفياً بالديمقراطيات حين تزحف ألمانيا غرباً وينهال عليها باللوم لعدم تقديمها العون الكافي له حين يزحف هتلر شرقاً[1].

لقد أساء روزفيلت ترجمة ستالين، لكنه لم يفرط بالمصالح الامريكية في مؤتمر يالطة عام ١٩٤٥، فلم يكن روزفيلت ساذجاً في كل جوانب سياسته، فقد حاول ربط المساعدة الإقتصادية بتنازلات من جانب السوفييت ورفض اقتسام الأسرار الذرية معهم، كان ببساطة، شخصاً واقعياً في ما يتعلق بمن ستكون له قوات في شرقي أوروبا وسيكون له نفوذ بالمنطقة، كانت أخطاؤه تنحصر في اعتقاده بان ستالين يرى العالم مثلما يراه هو ويفهم ما هي السياسة الديمقراطية في الولايات المتحدة وان المهارات السياسية الامريكية نفسها التي يستعين بها قائد سياسي لتبديد الخلافات واستشارة الصداقة كانت ستنجح في التعامل مع ستالين.

سياسات ستالين:

كانت خطط ستالين العاجلة غداة الحرب تهدف الى تشديد سيطرته في الداخل، ألحقت الحرب العالمية الثانية أضرارا فادحة بالإتحاد السوفيتي، لم تقتصر على الخسائر البشرية

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦.

والصناعية المرعبة التي سبق الحديث عنها، بل تعدتها الى الأيديولوجية الشيوعية، فكثير من الناس تعاونوا مع الالمان بسبب امتعاضهم العميق من قسوة الحكم الشيوعي، لقد اضعف الغزو الألماني سيطرة ستالين بدرجة خطيرة، صحيح ان ستالين اضطر الى زيادة مخاطبته الروح القومية الروسية، خلال الحرب، بعدما عجزت الأيديولوجيا الشيوعية الضعيفة عن استثارة شعبه، لذا صممت سياسة العزلة الستالينية غداة الحرب لتقطع الطريق على التأثيرات الخارجية الآتية من أوروبا والولايات المتحدة، فقد استعمل ستالين الولايات المتحدة كعدو مشخص، داعيا الشعب السوفيتي الى تقوية إرادته والآنتباه والارتياب بالأجانب، ولكن لا يستتبع هذا ان ستالين أراد الحرب الباردة التي نشأت عقب ذلك فعلاً.

فضل ستالين بعض التعاون، وخاصة إذا وجد فيه ما يساعده على بلوغ أهدافه في شرقي أوروبا وعاد عليه ببعض مساعدات إقتصادية من الولايات المتحدة، كان كشيوعي مخلص يعتقد بأن الولايات المتحدة لا تملك إلا ان تعطيه مساعدة إقتصادية لان النظام الرأسمالي يحتاج الى تصدير المال بسبب عدم كفاية الطلب في الداخل، واعتقد ستالين انه في مدى العشر او الخمس عشرة سنة القادمة تحل أزمة النظام الرأسمالي التالية، يومئذ يكون الإتحاد السوفيتي قد استعاد عافيته واستعد لكسب المنازلة الحتمية مع الرأسماليين.

أما بلغة السياسة الخارجية فقد أراد ستالين حماية نفسه في الداخل، والاحتفاظ بالمكاسب التي حصل عليها الإتحاد السوفييت في شرقي أوروبا من معاهدته مع هتلر عام ١٩٢٩، بالوقت نفسه، كما أراد ان يختبر المواضع الهشة، التي تبدو بصورة أوضح أحياناً حين لا تكون هناك أزمة، ففي عام ١٩٤١ قال لوزير الخارجية البريطانية (انطوني ايدن) انه –أي ستالين– يفضل الحساب على الجبر، بمعنى انه يفضل معالجات عملية لا نظرية، وحين قدم ونستون تشرشل صيغة (خطة) لتقاسم النفوذ في البلقان بعد الحرب، أي وضع بعض البلدان تحت سيطرة بريطانية وبعضا آخر تحت سيطرة سوفيتية وآخرى مناصفة بين الاثنين رحب ستالين بادىء الامر بفرض حكومات شيوعية مباشرة في الصين وتشيكوسلوفاكيا والمجر يتماشى تماماً مع هذا

المدخل الحسابي لا الجبري الى تحقيقه أهدافه، كان ستالين شيوعياً ملتزماً غالباً ما يلجأ الى تكتيكات براغماتية، وان رأى العالم من خلال إطار الشيوعية.

أدوار الصراع:

يمكن تقسيم المراحل الأولى من الحرب الباردة الى ثلاثة أدوار: البدايات التدريجية ١٩٤٥-١٩٤٧/ إعلان الحرب الباردة ١٩٤٧-١٩٤٩/ ارتفاع الحرب الباردة ١٩٥٠-١٩٦٢.

لم يكن ستالين او ترومان يبحثان عن حرب باردة، ففي نهاية الحرب العالمية الثانية أرسل ترومان مساعد روزفيلت السابق (هاري هوبكنز) الى موسكو لمعرفة مدى إمكانية القيام ببعض الترتيبات، وظل ترومان، حتى بعد مؤتمر بوتسدام، يرى ستالين شخصاً معتدلاً، والحق انه ظل الى أوآخر عام ١٩٤٩ يشبه ستالين بصديقه القديم (بوس بيندرغاست) من مدينة كينساس، في عام ١٩٦٤ كان جورج كينان يحاول تحذير الولايات المتحدة من طبيعة ستالين ونواياه الحقيقية، وألقى تشرشل خطاباً شهيراً في مدينة فلتن بولاية ميزوري حذر فيه من ان (ستاراً حديدياً) نزل عبر أوروبا، وبينما كان وزير الخارجية الامريكي (جيمس برنز) ماضياً في محاولة التوصل الى معاهدة مع السوفييت لما بعد الحرب، طلب ترومان من (كلارك كليفورد) ان يعد له تقريراً عما كان السوفييت يخططون له لاحقاً، وتحدث كليفورد الى أناس من مختلف الأوساط فوصل الى نتيجة ان كينان كان مصيباً: بان السوفيت ينوون التوسع كلما سنحت فرصة غير مكلفة، وحين تسلم ترومان التقرير في شهر كانون الأول ١٩٤٦ طلب من كليفورد ان لا ينشر النتائج على نطاق واسع لانه كان مستمراً في اتباع مشروع روزفيلت الكبير ولم يضع بعد ستراتيجية جديدة.

ست قضايا ساهمت في تغيير الاستراتيجية الامريكية بالنهاية وفي بدء الحرب الباردة، إحداها كانت مسألة بولندا و أوروبا الشرقية، بولندا كانت طبعاً أحد الأسباب المعجلة باندلاع الحرب العالمية الثانية، واعتقد الامريكان بان ستالين أخل بالتزام صريح بأجراء انتخابات حرة في بولندا بعد الحرب، ومع ذلك لم يكن ما وافق ستالين على القيام به واضحاً، فحين التقى ستالين وروزفيلت في طهران عام ١٩٤٣ أثار روزفيلت القضية البولندية، لكنه ناصر ستالين في

سياق العملية الآنتخابية الامريكية عام ١٩٤٤: فقد كانت أمامه انتخابات وهناك ناخبون بولنديون كثيرون أراد ان يخبرهم بان انتخابات ستجري في بولندا بعد الحرب، أما ستالين، الذي لم يشغل باله يوماً ما بالآنتخابات في الإتحاد السوفيتي، لم يحمل اهتمامات روزفيلت على محمل الجد، كذلك كانت اتفاقية يالطا في شباط ١٩٤٥ تنطوي على شيء من الغموض، وزاغ ستالين عن المعنى بقدر ما يستطيع وذلك بإقامته حكومة ألعوبة في وارشو بعدما طرد الجنود السوفييت الالمان من البلاد، لقد شعر الامريكيون بأنهم خدعوا لكن ستالين شعر بان الامريكان سيرضخون لواقع كون الجنود السوفييت هم الذين حرروا بولندا.

في أيار ١٩٤٥ أوقف العمل فجأة ببرنامج مساعدات الإعارة والتأجير وتوترت العلاقة الإقتصادية بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي، وكان ذلك الآنهاء المتهور لبرنامج الإعارة والتأجير خطأً بيروقراطياً –إدارياً– الى حد ما، لكن الوضع الإجمالي لم يتحسن حين رفضت الولايات المتحدة في شباط ١٩٤٦ طلبات قروض قدمها الإتحاد السوفيتي، وقد فسر السوفييت تلك التصرفات بانها ضغوط إقتصادية لأغراض عدائية.

وكانت ألمانيا مشكلة ثالثة، ففي اجتماع يالطا اتفق الامريكان والسوفييت على وجوب ان تدفع ألمانيا عشرين مليار دولار كتعويضات يذهب نصفها للاتحاد السوفيتي، أما تفاصيل شكل التسديد وموعده فلم يثبت في يالطا، وان اتفق الطرفان على بحثها فيما بعد، وفي اجتماع بوتسدام، بشهر تموز ١٩٤٥، طالب السوفييت بالمليارات العشرة، وفوق هذا طالبوا بتسديدها من القطاعات الغربية الألمانية التي احتلها الامريكان والبريطانيون والفرنسيون، ولما شعر هاري ترومان بالقلق على مسألة إعادة إعمار ألمانيا قال إذا أراد السوفييت اخذ المليارات العشرة من ألمانيا فعليهم ان يأخذوها من القطاع الشرقي الذي احتلوه، واذا ظل شيء من الأموال بعد إعادة إعمار القطاع الغربي فسوف نعلمهم بذلك.

وهكذا بدأت سلسلة من الآنقسامات بين الامريكان والسوفييت، حول كيفية إعادة اعمار ألمانيا، انشأ الامريكان والبريطانيون والفرنسيون عملية مستقلة في القطاعات الغربية، مبتدئين

بذلك عملية اندماج القطاعات الغربية، الامر الذي جعل السوفييت يشددون قبضتهم على القطاع الشرقي من ألمانيا.

وكان الشرق الأقصى قضية هو الآخر، التزم السوفيت الحياد في المحيط الهادي حتى الأسبوع الأخير من الحرب، ثم أعلنوا الحرب على اليابان، فاستولوا على منشوريا وأربع جزر من شمال اليابان، وفي مؤتمر بوتسدام طالب السوفييت بقطاع احتلال لهم في اليابان، مثل القطاع الأمريكي في ألمانيا، وكان رد ترومان ان السوفييت وصلوا الى الحفلة متآخر ين، لذا لا قطاع لهم، كان الموقف معقولاً من وجهة النظر الامريكية، لكن تلك الحالة ذكرت السوفييت بأوروبا الشرقية، حيث أراد الامريكان انتخابات حرة ونفوذاً، لكن الجيوش السوفيتية هي التي كانت قد وصلت اولاً، وعلى هذا وجد السوفييت الوضع في أوروبا الشرقية نظيراً للوضع بالشرق الأقصى، في حين رأى الامريكان فيه مثالاً آخر على سعي السوفيت للتوسع.

القضية الخامسة هي القنبلة الذرية، كان روزفيلت قد قرر عدم إشراك الإتحاد السوفييتي في أسرار القنبلة الذرية.

ان اغلب المؤرخين يتفقون الآن على ان ترومان ألقى القنبلة على هيروشيما وناكازاكي ليعجل بإنهاء الحرب بالدرجة الأولى، لا ليخيف الإتحاد السوفييتي كما زعم بعض التعديليين.

لكنه كان يتوقع ان تحدث القنبلة بعض التأثير السياسي، يوم ابلغ ترومان ستالين في مؤتمر بوتسدام بان لدى امريكا قنبلة ذرية ظل وجه ستالين مثل وجه لاعب البوكر جامداً كأن الخبر لا يعني شيئاً، ستالين كان على علم بذلك بواسطة جواسيسه، لكن رباطة جأشه صعقت الامريكان.

وحين قدمت الولايات المتحدة مشروع باروخ، لفرض رقابة الأمم المتحدة على الأسلحة النووية عام ١٩٤٦ رفض ستالين المشروع لانه أراد ان يصنع قنبلته الخاصة، فقد قادته بصيرته الى قنبلة تحت رقابة دولية معناها قنبلة تحت سيطرة امريكا، لان الامريكان وحدهم كانوا يعرفون صناعتها، والأفضل للسوفيت بكثير ان تكون لهم قنبلتهم (التي فجروها أخيراً في عام ١٩٤٦).

القضية السادسة كانت تخص بلدان شرق المتوسط والشرق الأوسط، حيث كانت بريطانيا صاحبة النفوذ قبل الحرب العالمية الثانية، حصلت أمور عدة بعد الحرب، اولاً رفض السوفييت سحب قواتهم من شمالي ايران في آذار ١٩٤٦، ووقفت الولايات المتحدة الى جانب ايران حين نوقشت المسألة في الأمم المتحدة، واخيراً انسحب السوفييت، ولكن بشعور عميق بالمرارة، ثم بدأ السوفييت يمارسون ضغطاً على تركيا، جارتهم الجنوبية، وبدا كأن الشيوعيين اليونانيين انتصروا في الحرب الأهلية، ومرة آخرى امن الغرب بان السوفييت ماضون في التوسع.

هذه النقاط الست كانت حقيقية وان خالطها شيء من سوء التفسير، أكان يمكن حلها بالمفاوضات والاسترضاء؟ أكان الاسترضاء سينفع؟ ربما لا. ذلك ان ستالين في رأي كينان، كان يتفحص كل موضع هش، وكانت سياسة الاسترضاء تعتبر موضعاً هشاً يدعو الى مزيد من التفحص، ففي حزيران ١٩٤٦ حذر وزير الخارجية السوفييتي السابق (مكسيم ليتثينوف) نظيره الامريكي من أية تنازلات لان السبب الجذري للتوتر ان (المفهوم الأيديولوجي) السائد هنا هو ان الصراع بين العالمين الشيوعي والرأسمالي حتمي لا مفر منه، واي تنازل سيؤدي ببساطة (الى ان يواجه الغرب بعد فترة من الزمن، طالت أم قصرت، السلسلة التالية من المطالب)[1]. ربما كان الاسترضاء سيفشل، لكن المساومات الأصعب ربما كانت ستلغي بعض الأحداث التي أدت الى قيام الحرب الباردة، لو كان الامريكان لجأوا الى مناشدة تكتيكية لبراغماتية ستالين من موقف اشد تصلباً، مع رغبة في التفاوض فربما كانوا خرجوا بنتائج افضل في الدور الأول من الحرب الباردة :١٩٤٥-١٩٤٧.

الدور الثاني، إعلان الحرب الباردة، من ١٩٤٧-١٩٤٩، نشأ عن مشاكل اليونان وتركيا، فقد شعرت بريطانيا، التي أنهكتها الحرب العالمية الثانية، بأنها لم تعد قادرة على توفير الحماية لشرق المتوسط، وكان على الولايات المتحدة ان تقرر ترك الفراغ ينمو ويزداد او تحل محل بريطانيا بتوفير المساعدة لليونان وتركيا، وكان هذا يعني الخروج الى حد كبير من نطاق السياسة الامريكية التقليدية، كان ترومان خائفاً من احتمال رفض الرأي العام الامريكي مثل هذه

(١) المصدر السابق، ص١٣١.

الخطوة، وسأل ترومان السيناتور (ارثر فاندنـبرغ) زعيـم الجمـهوريين، ان كـان مجلـس الشـيوخ سيدعم مساعدة اليونان وتركيا، فنصحه فاندنبرغ بان (يخيفهم حد اللعنـة) إذا أراد كسـر جمـود السياسة التقليدية الامريكية، ولذا حـين أوضـح ترومـان تغيـير السياسـة المطلـوب لم يتكلـم عـن ضرورة المحافظة على توازن القوى في شرق المتوسط بتقديم العون الى اليونان وتركيا، إنما تحـدث عن الحاجة لحماية الشعوب الحـرة أينمـا تكـون، وصـار هـذا الأيضـاًح الأيديولوجـي الأخلاقـي للمساعدات الامريكية يعرف باسم (مبدأ ترومان).

يومها كان جورج كينان قد عاد الى وزارة الخارجية، فاعـترض علـى الطريقـة الأيديولوجيـة التي تصاغ بها السياسة الخارجية، قائلا انهاً سائبة جـداً ويمكـن ان تجـر البـلاد الى المتـاعب، والحق ان سياسة الاحتواء التي ولدت من (مبدأ ترومان) جاءت فضفاضة طافحة بالنقاط المبهمة، هل كانت الولايات المتحدة مهتمة باحتواء القوة السوفيتية او الأيديولوجية الشيوعية؟ في البدايـة كان احتواء كليهما يبدو أمرا واحداً ولكن حين انشقت الحركـة الشـيوعية أبـان الحـرب البـاردة صارت هذه الالتباسات مهمة.

هـل اخطـأ ترومـان حـين بـالغ في الشـعور بالتـهديد وعـرض الأسـاس الأيديولوجـي لتغيـير السياسة؟ ان بعض المراقبين يشعر بان تغيير الرأي العام في البلدان الديمقراطية اصعب بكثير مـن تغيير السياسة فيها، فمن الضروري ان تشد علـى الأعنـة بقـوة إذا كنـت تريـد التحكـم بخيـول جامحة، وسواء كانت المبالغة ضرورية او غير ضرورية فإنـها سـاعدت في تغيـير طبيعـة الحـرب الباردة.

في حزيران ١٩٤٧ أعلن وزير الخارجيـة (جـورج مارشـال) عـن مشـروع معونـة إقتصاديـة ل أوروبا، وفي مستهل المشروع دعي الإتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية للانضمام إذا رغبـوا، ولم ير في مشروع مارشال نفحة كرم امريكية، بل آلة دك حصون يراد بها تدمير الحاجز الأمـني في أوروبا الشرقية، وحين أشـارت تشيكوسـلوفاكيا الى إنـها ترغـب في المسـاعدة الامريكيـة شـدد ستالين الخناق على شرقي أوروبا واستولى الشيوعيون على كل مقاليد السـلطة في تشيكوسـلوفاكيا في شباط (فبراير) ١٩٤٨.

لقد سمع ترومان أصداء الثلاثينا ت في تلك الأحداث، وساوره قلق من ان ستالين في طريقه لان يصبح هتلر آخر، وعجلت الولايات المتحدة بخطط لاصلاح عملة ألمانيا الغربية، فرد ستالين بفرض الحصار على برلين، وقامت بإقامة جسر جوي ردا على الحصار وشرعت بوضع الخطط لإنشاء حلف شمال الأطلسي (الناتو) وبدأت الخصومة تشتد بصورة الأجراء والأجراء المماثل.

وجاء اشد أدوار الحرب الثالثة تصلباً اثر صدمتين في عام ١٩٤٩: إذ فجر الإتحاد السوفييتي قنبلة ذرية بأسرع من توقعات الامريكان وسيطر الحزب الشيوعي الصيني على الصين (باستثناء جزيرة تايوان) وقد عبرت عن الذعر الذي أصاب واشنطن في وثيقة رسمية سرية، هي (الوثيقة ٦٨ لمجلس الأمن القومي– NSC68) تنبأت بوقوع هجوم سوفييتي في مدى أربع سنوات او خمس كجزء من خطة للسيطرة على العالم، ودعت الوثيقة الى زيادة النفقات الدفاعية الامريكية الى حد كبير للغاية، وقد أزعجت مشاكل الميزانية الرئيس ترومان فظل يقاوم الوثيقة NSC68 الى ان اخترقت قوات كوريا الشمالية حدود كوريا الجنوبية في حزيران ١٩٥٠.

كانت آثار الحرب الكورية كمن يصب زيتاً على نار صغيرة، فقد أكدت أسوأ شكوك الغرب حول مطامع ستالين التوسعية وأدت الى زيادة ميزانية الدفاع الامريكية بشكل هائل وظل ترومان يقاومها حتى ذلك التاريخ، لماذا سمح ستالين لكوريا الشمالية بغزو كوريا الجنوبية[1]؟ خروشوف يقدم تفسيراً في مذكراته: ضغط الزعيم الكوري الشمالي كيم ايل سونغ على ستالين لان يتيح له فرصة لتوحيد شبه الجزيرة الكورية، وكانت الولايات المتحدة قد قالت ان كوريا خارج حدودها الدفاعية، وتحدث وزير الخارجية دين اشيسون بوضوح في هذا الشأن وخططت رئاسة الأركان المشتركة على هذا الأساس، لقد بدت كوريا نقطة هشة في نظر ستالين، ولكن حين عبرت كوريا الشمالية حدود كوريا الجنوبية كان رد ترومان بديهياً فعلاً لا محسوباً: فقد تذكر ترومان انتهاك هتلر منطقة الراين واسترجع في ذهنه البديهية التي تقول مقاومة العدوان أينما يكون، كانت المقارنة التاريخية التي أثارها الغزو الكوري الشمالي من القوة ما جعلها تطغى على الخطط المتعلقة بالحدود الدفاعية، لقد استطاعت الولايات المتحدة ان تعبيء مجلس الأمن للمصادقة على الأمن

(١) انظر ملحق رقم (١٢).

الجماعي الامر الذي أمكن تحقيقه لان الإتحاد السوفييتي كان قد قاطع مجلس الأمن يومئذ، ثم أرسلت قوات الى كوريا تحت راية الأمم المتحدة.

في البداية اكتسحت جيوش كوريا الشمالية شبه الجزيرة وصولاً الى أقصى نقطة في الجنوب، ولكن في أيلول (سيبتمبر) أنزلت امريكا قواتها بطريق البحر في منطقة انتشون فهزمت الكوريين الشماليين هزيمة منكرة، ولو كانت الولايات المتحدة وقفت عند تلك النقطة لكانت حصيلة الحملة اقل إيلاماً، لكن ترومان تعرض لضغوط ترمي الى مطاردة القوات المتقهقرة الى شمال الخط ٣٨، وحين اقترب الامريكيون من نهر يالو، الذي يفصل كوريا عن الصين، تدخل الصينيون جاعلين قوات الأمم المتحدة تتراجع الى أواسط شبه الجزيرة الكورية، هناك ظل القتال سجالاً طوال ثلاث سنوات حتى توقيع الهدنة عام ١٩٥٢.

لقد تورطت الولايات المتحدة مع الصين، وبدت الشيوعية متماسكة قوية وأدت الخيبة الى انشقاق داخلي في امريكا وظهور المكارثية، وازدادت كتل الحرب الباردة تصلباً وتوقفت الاتصالات بين الجانبين تقريباً.

الحتمية:

هل كان قيام الحرب الباردة أمراً حتمياً لا مفر منه؟ جماعة ما بعد التعديلية مصيبون إذا اعتبرنا الحتمي يعني (محتمل الى حد كبير) ذلك ان البنية ثنائية القطبين جعلت من المحتمل انجرار كلا الجانبين الى حالة فراغ قوي في أوروبا بحيث يغدو من الصعب فك الاشتباك، واعاق الجو الأيديولوجي المشحون عمل الأمم المتحدة وساهم في تطرف مسيرة النظام الدولي، وتحت ظروف شائكة كهذه كان لابد ان تقوم صراعات حول القضايا الست التي مر ذكرها وعدد آخر غيرها وأصبحت كلها صعبة الحل.

على ان جماعة ما بعد التعديلية تعتمد بإفراط على التفسير ذي العلاقة بالنظام، قد يكون صحيحاً ان الحرب الباردة حتمية لا مفر منها، لكن عمقها لا، ثم ان هناك أدواراً مختلفة من الخصومة، ولما كانت ثنائية الأقطاب في النظام الدولي لم تتغير حتى عام ١٩٨٩، فان التفسيرات البنيوية عاجزة عن تفسير الأدوار المختلقة او عمق الخصومة، هنا يصبح المهم هو الأفراد

والسياسة الداخلية – روزفيلت وترومان، ستالين وخرشوف، ويجب دراسة السياسة الداخلية بعناية لنفهم مدى الحرب الباردة تماماً، فالتعديليون مصيبون بتركيز الاهتمام على المسائل الداخلية، لكنهم مخطئون في مبالغتهم بالتركيز على الجبرية الإقتصادية، فاهم من ذلك هو دور المغالاة والأيديولوجيا في السياسة الداخلية، واستخدم ستالين الأيديولوجيا بسبب المشاكل الداخلية بعد الحرب وبالغ ترومان لكي يغير السياسة الخارجية الامريكية، وقد ساعدت المقارنة مع فترة الثلاثينا ت في تقوية المواقف المتصلبة لكلا الطرفين.

والغريب المضحك ان تكون الإستراتيجيات البديلة في مختلف الأوقات عاملاً من عوامل تعميق الخصومة، مثل ذلك، ان الولايات المتحدة اتبعت نصيحة كينان وردت بصرامة اشد في الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ واتبعت سياسة مفاوضة واتصالات اكثر براغماتيكية –من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٠– فربما كانت ذروة الحرب الباردة ستنتهي أوائل الخمسينات.

مستوى التحليل:

يمكن وصف أصول الحرب الباردة بلغة صور او مستوى التحليل المختلفة المبينة. في القرن التاسع عشر تنبأ (الكسي دوتوكفيي) بان روسيا والولايات المتحدة في الطريق لان تصبحا اكبر عملاقين قاريين في العالم، ومن هذا المنطلق قد يكون الواقعيون تنبئوا بان هذين الاثنين سيدخلان في صراع، وفي عام ١٩١٧ جاءت الثورة البلفشية لتضيف بعداً أيديولوجيا لهذا الصراع طبعاً.

فحين بلغت وودرو ولسون أنباء الثورة الروسية هنأ الشعب الروسي على روحيته الديمقراطية، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اتهم الامريكيون البلاشفة الروس بأعمال الإبادة وتجريد الناس من ممتلكاتهم والتعاون مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وقد تدخلت الولايات المتحدة بقواتها بدعوى محاولة إبقاء الروس ضد ألمانيا في الحرب، لكن السوفييت فسروا ذلك على انه محاولة لخنق الشيوعية وهي في المهد، ورغم هذه الاختلافات تجنب الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الدخول في صراعات خطيرة في فترة الحرب واصبحا حليفين في أوائل الأربعينات، ثم جاءت ثنائية الأقطاب، التي أعقبت انهيار كل الدول الكبرى الآخرى في الحرب العالمية الثانية، وما نتج عن ذلك الآنهيار من فراغ قوة، فغيرت العلاقة، في البدء نشا

ارتياب متبادل، لكنه كان ارتياباً من بعيد، كانا يستطيعان تجنب بعضهما قبل الحرب العالمية الثانية، لكنهما صارا وجهاً لوجه بعد عام ١٩٤٥. وبدأ صراع عميق بعد عام ١٩٤٧، بعض الناس يتساءل ان كان لبنية الأقطاب الثنائية هذا التأثير: فالإتحاد السوفييتي دولة كبرى برية، في حين ان الولايات المتحدة دولة كبرى بحرية فلماذا لا يكون هناك تقسيم عمل بين الفيل والحوت وكل يبقى في بيئته ومحيطه؟

الجواب هو ان (فيشات) الرهان الرئيسة، أي البلدان التي تستطيع ان ترجح كفة الميزان هذه او تلك، تقع في محيط الإتحاد السوفييتي، وخاصة أوروبا واليابان، قال جورج كينان يصف الوضع بعد الحربين ان هناك أربع مساحات كبيرة للإبداع التكنولوجي والصناعي، لو كانت ائتلفت بشكل او بآخر لكانت غيرت ميزان القوى الدولي، تلك هي الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي وأوروبا واليابان، وكان تحالف أوروبا واليابان مع الولايات المتحدة على قدر كبير من الاهمية.

توقعت التفسيرات البنيوية حدوث صراع لذا علينا ان نتجاوز التفسيرات البنيوية الى مستويات التحليل المجتمعية والفردية –الخاصة بالأفراد– فعلى المستوى المجتمعي كان البلدان مختلفين جداً عن أحدهما الآخر، باختصار شديد نقول ان تقاليد الإتحاد السوفييتي السياسية والتعبير عنها في السياسة الخارجية تضعنا أمام جذرين: روسي وشيوعي، فالتقليد في السياسية الروسية يؤكد نزعة الحكم المطلق لا الديمقراطية، الرغبة في وجود قائد قوي، والخوف من الفوضى (ان روسيا إمبراطورية مترامية الأطراف غير متماسكة والخوف من الفوضى والآنسلاخ اللذين يمكن ان يؤديا الى التفكك خوف حقيقي تماماً) والخوف من الغزو (روسيا دولة كبرى برية غير محصنة جغرافياً غزت وجرى غزوها من قبل جيرانها على مر القرون) والقلق او الخجل من حالة التخلف (منذ أيام بطرس الأكبر والروس يحاولون تحسين حضورهم في التنافس الدولي) والسرية والتكتم (الرغبة في إخفاء الجانب الأسوأ من الحياة الروسية)، يضاف الى ذلك ان النظام الشيوعي تعامل مع الحقوق الطبقية لا الفردية على إنها أساس العدالة، والدور المناسب

للشخص او المجتمع هو توجيه (قيادة) البروليتاريا او الطبقة العاملة نحو السيطرة لان هذا هو مسار التاريخ، كما مفروض.

واعطى الطلاء الأيديولوجي دفعة آخرى الى أمام للإمبريالية الروسية التقليدية وأدى الى وضع سياسة خارجية شديدة التكتم والسرية، ومن المهم ملاحظة اوجه القوة والضعف في عملية السياسة هذه، لقد كانت اوجه القوة واضحة في عام ١٩٢٩ حين كان ستالين سريع الاستعداد لتوقيع حلف مع هتلر، فلم يقيده الرأي العام ولم يكن هناك ما يسمى إدارة تحده، كان مطلق اليد لان يسرع بالتحالف مع هتلر في حين كان البريطانيون والفرنسيون ما يزالون في اخذ ورد حول التعامل معه، وجاء الوجه الآخر من العملية عام ١٩٤١ حين هاجم هتلر الإتحاد السوفييتي، لم يستطع ستالين تصديق ان هتلر يفعل شيئاً كهذا وانتابه قنوط شديد طيلة أسبوع او يزيد، وكانت النتيجة كارثة للدفاعات السوفييتية في أدوار الحرب الأولى.

على العكس من ذلك أكدت التقاليد السياسية الامريكية على الديمقراطية الليبرالية والتعددية وتجزئة السلطة، وبدلاً من الشعور بالعار والخجل من جراء التخلف تتفآخر الولايات المتحدة بما حققته من تكنولوجيا وتوسع إقتصادي، وبدلاً من خشية الغزو استطاعت الولايات المتحدة خلال اغلب فترات تاريخها ان تعزل نفسها بين محيطين، أما من حيث السرية والتكتم فالولايات المتحدة من الإنفتاح ما يجعل وثائقها الحكومية تصل الى يد الصحافة في مدى بضعة أيام او أسابيع، وبدلا ً من اعتماد مبدأ الطبقة في النظر الى العدالة، أكدت بشدة على عدالة الفرد، فجاءت السياسة الخارجية النابعة من هذه التقاليد السياسية، أخلاقية وعامة وتميل للتذبذب تبعاً للتأثيرات من الداخل والخارج، فكانت النتيجة ان اتسمت السياسة الخارجية الامريكية، في اغلب الأحيان بعدم التناغم وعدم التماسك في كثير من وجوهها السطحية، ولكن هناك وجه آخر للعملية أيضاً، فقوة الإنتاج والتعددية غالباً ما كانت تحمي الولايات المتحدة من أخطاء فادحة.

وعلى هذا، ليس غريباً ان نجد هذين المجتمعين المختلفين جداً هيكليا ولجهة عملية رسم السياسة الخارجية يربكان الواحد الآخر، لقد رأينا أمثلة على الكيفية التي تعامل بها روزفيلت

وترومان مع ستالين في الأربعينات، كان صعباً على الأمريكيين ان يفهموا الإتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة لان الأخير كان أشبه بصندوق اسود، فقد كان القادة الامريكان يستطيعون رؤية ما يدخل الصندوق وما يخرج ولكن ليس ما يحدث في الداخل، كذلك اربك الامريكان السوفييت، فهم مثل ماكنة شديدة الضجيج بحيث يصعب على المرء سماع إيقاع حركتها بوضوح، فثمة أناس كثيرون يقولون أشياء كثيرة ، الامر الذي اربك السوفييت كثيراً وجعلهم لا يعرفون ما يريده الامريكان حقاً.

الأهداف الامريكية والسوفييتية في الحرب الباردة:

غالباً ما اتهم السوفييت بالتوسعية، لكونهم دولة ثورية لا دولة وضع راهن، كما ان السوفييت يميلون الى حيازة الأشياء الملموسة كالأراضي، في حين مال الامريكان الى أهداف غير ملموسة، او الى مناخات – سبل تأسى المنظر العام للسياسة الدولية.

ويمكننا الاستدلال على هذا من نوع المطالب التي حملها ستالين وتشرشل وروزفيليت الى طاولة المساومات في يالطا. كانت الأهداف في يالطا واضحة للغاية: ألمانيا وبولندا. تشرشل أراد إعادة فرنسا الى سابق وضعها لتساعد في تحقيق توازن قوى مع السوفييت في حالة عودة الامريكان الى بلدهم، وأراد روزفيلت الأمم المتحدة ونظاماً إقتصادياً دولياً مفتوحاً، وكانت الأهداف شديدة الاختلاف، وقد جاءت أهداف ستالين لما بعد الحرب أهدافاً إمبريالية روسية كلاسيكية، فأراد الاحتفاظ بالمكاسب التي خرج بها من معاهدته مع هتلر، ولم تكن قائمة رغباته لتختلف عن رغبات بطرس الأكبر.

لقد شعر بعض الامريكان بان السوفييت لا يقلون توسعية عن هتلر الذي اشتهى السيطرة على العالم، وذهب آخر ون الى ان توسعية السوفييت وراءها حاجة الى الأمان، فهي توسعية دفاعية. ان هناك وجهين على الأقل لاختلاف النزعة التوسعية السوفييتية عن الهتلرية، أولهما إنها ليست ميالة للحرب، فالسوفيت لم يكونوا يريدون الحرب، فحين غزا هتلر بولندا ساوره القلق من ان تعرض عليه ترضية آخرى كترضية ميونيخ تحرمه من متعة الحرب لبناء أمجاد الفاشية، الاختلاف الآخر هو ان الإتحاد السوفييتي انتهازي حذر وليس مغامراً متهوراً، فروح

المغامرة خطيئة، في نظر السوفييت، بحق الشيوعية لأنها تربك مسيرة التاريخ المنظور، ولم يكن الإتحاد السوفييتي، أثناء الحرب الباردة، ميالاً للحرب اومتهوراً مثل هتلر أبداً.

ومع ذلك فثمة مشاكل في تصوير السلوك السوفييتي فهو دفاعي محض، فقد تعلمنا من الحرب البيلوبونيزية ان من الصعوبة بمكان التمييز بين الهجوم والدفاع في العالم ثنائي الأقطاب، فبعض الأفعال قد تكون وراءها دوافع دفاعية لكنها تبدو تهديدي للغاية في نظر الطرف المقابل، وفوق هذا فنحن نعرف ان هناك تاريخاً طويلاً للتوسع الدفاعي او الإمبريالية، فمثلا توجهت بريطانيا لاحتلال مصر، في القرن التاسع عشر، لحماية طرقها البحرية الى الهند، وبعد احتلالها مصر شعرت بوجوب احتلال السودان لحماية مصر، ثم احتلت أوغندا لحماية السودان، وبعد احتلال أوغندا شعرت بريطانيا بوجوب احتلال كينيا لكي تمد سكة حديد لحماية الاولى، وتفتح الشهية عند الأكل فتستعمل المعضلة الأمنية لتبرير المزيد من التوسع، وقد أضافت الشيوعية دافعاً أيديولوجياً، هو تحرير الطبقات العاملة في جميع بقاع العالم، لتسبغ مزيداً من المشروعية على التوسع، باختصار، كانت أهداف الإتحاد السوفييتي توسعية أثناء الحرب الباردة، ولكن بحذر وانتهازية.

الاحتواء:

وماذا عن الأهداف الامريكية؟ أرادت الولايات المتحدة احتواء الإتحاد السوفييتي أثناء الحرب الباردة، لكن سياسة الاحتواء، انطوت على مسألتين غامضتين كبيرتين، إحداهما تتعلق بالغايات: احتواء القوة السوفيتية أم احتواء الشيوعية؟ والثانية تتعلق بالوسائل: إنفاق الأموال لمنع أي توسع للقوة السوفيتية أم الاقتصار على مناطق رئيسية معينة تبدو مهمة بدرجة خطيرة لتحقيق التوازن؟ هاتان النقطتان، المبهمتان في ما يتعلق بالغايات والوسائل، كانتا موضع نقاش حار في فترة ما قبل الحرب الكورية، فانشق (جورج كينان) على صيغة الاحتواء الفضفاضة التي نادى بها ترومان، فقد كانت فكرة كينان عن الاحتواء اقرب الى الدبلوماسية القديمة – الكلاسيكية– إذ دعت الى اعتماد وسائل عسكرية اقل ومزيد من الآنتقائية، واحسن مثال على ذلك يوغسلافيا بحكومتها الشيوعية المستبدة التي على رأسها جوزيف تيتو، في عام ١٩٤٨ انشق

تيتو عن ستالين بسبب محاولات السوفييت السيطرة على سياسة يوغسلافيا الخارجية، بما في ذلك دعمها للشيوعيين اليونانيين، إذا نظرنا الى الاحتواء من ناحية أيديولوجية فعلى الولايات المتحدة ان لا تساعد يوغسلافيا لان الأخيرة شيوعية، اما من جهة توازن القوى، فكان على الولايات المتحدة ان تساعد يوغسلافيا إضعافا لقوة السوفييت، وهذا ما فعلته في الحقيقة. فقد قدمت مساعدات عسكرية لحكومة شيوعية دكتاتورية رغم حقيقة ما أعلنه (مبدأ ترومان) من هدف الدفاع عن حرية الشعوب في كل مكان، فعلت الولايات المتحدة هذا لأسباب تتعلق بميزان القوى وأحدثت هذه السياسة شرخاً كبيراً في قوة السوفييت بأوروبا.

على ان أطروحة كينان فقدت أسبابها بعد الحرب الكورية. ثم بدا ان تنبؤات وثيقة مجلس الأمن القومي رقم ٦٨ (**NSC68**) بشان التوسع السوفييتي كان لها ما يبررها، فقد كانت الشيوعية تتحرك بتماسك وتنسيق فيما كانت أدبيات الاحتواء تؤكد على هدف أيديولوجي هو منع الشيوعية من الآنتشار، في هذا السياق ارتكبت الولايات المتحدة خطاً فادحاً بتورطها في الحرب الفيتنامية، فقد لبثت الولايات المتحدة، طوال عقدين من السنين، تحاول منع الشيوعيين من السيطرة على فيتنام بثمن بلغ ٥٨ الف قتيل امريكي وربما مليون قتيل فيتنامي و(٦٠٠) مليار دولار واضطرابات في الداخل اضعفت سياسة الاحتواء نفسها كثيراً، ثم ان الولايات المتحدة، وهي تحاول احتواء الشيوعية في فيتنام الجنوبية، كانت تخشى ان تضعف الهزيمة صدق جدارتها لتنفيذ التزاماتها وكذلك سياسة الاحتواء التي تنتهجها في مناطق آخرى من العالم، المضحك في الامر ان الخلافات القومية بين بلدان آسيا الشيوعية، غداة هزيمة الامريكان وانسحابهم عام ١٩٧٥، أثبتت إنها قوة مؤثرة في المحافظة على توزان القوى بالمنطقة.

" من المبالغة القول ان السلوك الامريكي بمفرده ومن غير مساعدة كان باستطاعته ان يحيي او يميت الحركة الشيوعية ويعجل بانهيار السلطة السوفيتية في روسيا، لكن كان بمستطاع الولايات المتحدة ان تزيد الى حد كبير من ضغوطها على السياسية الخارجية السوفيتية وتفرض على الكرملين قدراً من الاعتدال لاحتراس اكبر بكثير مما قدر لها ان تراه في السنين الأخيرة، وبالتالي تقوي الميول التي لا بد ان تجد، في نهاية الامر، تعبيراً لها في انهيار السلطة —القوة– السوفييتية او اكتسابها الليونة تدريجياً[1].

جورج كينان (مصادر السلوك السوفييتي)

(١) جورج كينان، أصول السلوك السوفيتي – مجلة الشؤون الخارجية، المجلد ٢٥، العدد ٤ (تموز)، ١٩٤٧، ص ٥٨١.

بقية الحرب الباردة:

في عام ١٩٥٢ انتخب (دوايت ايزنهاور) رئيساً للولايات المتحدة الامريكية، بناء على وعد بإنهاء الحرب الكورية ودفع الشيوعية الى الوراء، وكانت دعوى الجمهوريين ان سياسة الاحتواء مجاملة جبانة للشيوعية. وان المعالجة الصحيحة هي دفع الشيوعية الى التراجع، وفي مدى ستة اشهر اتضح ان دفع الشيوعية الى الوراء أمر خطير جداً من حيث انه يعجل بحرب نووية، وبعد وفاة ستالين عام ١٩٥٢ ذاب جليد علاقات الحرب الباردة بعض الشيء، وفي عام ١٩٥٥ انعقد مؤتمر قمة بمدينة جنيف ووقعت معاهدة صارت النمسا بموجبها دولة محايدة، وفي عام ١٩٥٦ ألقى خروشوف خطاباً سرياً، أمام المؤتمر العشرين للحزب في الإتحاد السوفييتي، فضح فيه جرائم ستالين، وتسرب الخطاب الى الخارج ليسهم بأشاعة الفوضى وعدم الاستقرار في القطاع السوفييتي من أوروبا الشرقية، فحاولت المجر الثورة لكن السوفييت تدخلوا عسكرياً لابقائها داخل المعسكر الشيوعي.

وقرر خروشوف انه لابد من آخر اج الامريكان من برلين والتوصل الى تسوية نهائية لمسألة الحرب العالمية الثانية كي يستطيع تعزيز السيطرة السوفيتية على شرقي أوروبا والاستفادة من تصفية الاستعمار في العالم الثالث، لكن أسلوب خروشوف ومحاولاته التفاوض مع الولايات المتحدة تذكرنا بأسلوب قيصر ألمانيا وهو يحاول ان يجبر بريطانيا على التساوم قبل عام ١٩١٤، أسلوب مليء بالتهديد والخداع، وعادت جهوده لجر الولايات المتحدة الى الرضوخ بعكس ما كان يرمي إليه، فكان ان اخفق في أزمة برلين ١٩٥٨–١٩٦١ واخفق ثانية في أزمة الصواريخ الكوبية.

لقد وصل الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الى حافة الحرب النووية خلال أزمة الصواريخ الكوبية، الامر الذي أخافها ودفعها الى وجه جديد من العلاقة بينهما، كما سنرى، فقد برز انفراج تدريجي، من عام ١٩٦٢ حتى ١٩٧٨، او شيء من هبوط حدة التوتر، فأثمرت مفاوضات الحد من الأسلحة، التي أعقبت الأزمة الكوبية، (معاهدة حظر التجارب LimitedTest Ban Treaty) التي حدت من إجراء التجارب النووية في الجو، عام ١٩٦٢ ومعاهدة الحد من انتشار الأسلحة عام ١٩٦٨. وبدأت التجارة بين البلدين تنشط تدريجياً

وبدت حالة الآنفراج تـأخذ بالاتسـاع، فقـد جـاءت الحـرب الفيتنامية لتحـول انتبـاه الولايـات المتحدة اكثر نحو تهديد الشيوعية الصينية.

من عام ١٩٦٩ الى عام ١٩٧٤ استخدمت إدارة نكسون الآنفـراج كوسـيلة لتحقيـق الاحتـواء، فبعد أزمة الصواريخ الكوبية بدأ السوفيت حملة بناء ماكنـة عسـكرية ضخمـة وحققـوا تكـافؤاً في الأسلحة النووية، وجاءت الحرب الفيتنامية بخيبة أمل للرأي العام الامريكي بشـان التدخـل في الحرب الباردة.

وقد قامت ستراتيجية نكسون على (١) التفاوض على معاهدة السـيطرة علـى إنتـاج الأسـلحة الستراتيجية بغية إبقاء العلاقة النووية متوازنة و(٢) فتح علاقـات دبلوماسـية مـع الصـين لخلـق ميزان قوى ثلاثي الأطراف في آسيا بدلاً من دفع الصين والسوفييت الى التقارب في كفـة واحـدة، و(٣) زيادة التجارة لكي تكون هناك (جزرة وعصا) في العلاقة الامريكية السوفيتية و(٤) استعمال (همزة وصل) تربط أجزاء السياسة المختلفة بعضها ببعض، وكانت أعلى نقطة للانفـراج في عـامي ١٩٧٢و١٩٧٣ ولكن يبدو إنها لم تستمر طويلاً.

فقد أدت حرب الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ ومساعدة السوفييت الحركـات المعاديـة للغـرب في أفريقيا الى شعور بالاستياء من تضليل الواحد للآخر، وسـاهمت السياسـة الداخليـة الامريكيـة في تدهور الآنفراج حين حاول بعض المشـرعين الامريكيـين، مثـل السـيناتور هـنري جاكسـن، ربـط التجارة مع الإتحاد السوفييتي بحقوق الآنسان بدلاً من التصرف وفقاً لميزان القوى، وحين أنهت البرتغال استعمارها انغولا وموزمبيـق، عـام ١٩٧٥، أرسـل السـوفييت قـوات كوبيـة الى البلديـن لمساعدة الحكومتين الشيوعيتين على البقاء في السلطة، ولم يستعمل الرئيـس جـيرالد فـورد كلمـة (انفراج) وحاول خلفه (جيمي كارتر) مواصلة العمـل بـالآنفراج مـع الإتحـاد السـوفييتي، خـلال العامين الأولين من فترة رئاسته، لكـن السـوفييت (وكوبـا) كانـا قـد انغمسـا في الحـرب الأهليـة الأثيوبية واسـتمر السـوفيت في تقويـة قدراتـهم الدفاعيـة، وفي شـهر كـانون الأول ١٩٧٩ أطلقـوا رصاصة الرحمة على الآنفراج بغزوهم أفغانستان، الحديقة الخلفية للاتحاد السوفيتي.

لماذا عادت الخصومة؟ أحد التفسيرات يقول ان الآنفراج روج له اكثر من اللازم وانتظر منه اكثر مما هو متوقع، فإذا أردنا الدقة نقول ان ثلاثة اتجاهات في السبعينات، وقفت حجر عثرة في طريقه، أحدها استمرار السوفييت ببناء ماكنتهم الحربية وذلك بزيادة ميزانية التسلح بنسبة ٤ بالمائة سنوياً، مضيفين الى ترسانتهم في كل مرة عددا ً من الصواريخ الثقيلة التي أقلقت مخططي الدفاع الامريكي بصورة خاصة، الثاني هو التدخل السوفييتي في انغولا وأثيوبيا وأفغانستان، وقد برر السوفييت تدخلاتهم بما أطلقوا عليه تعبير (تعالق القوى) في التاريخ واعتقادهم بان التاريخ يتحرك بالاتجاهات التي تنبأت بها الماركسية – اللينينية، الثالث هو التغيرات التي طرأت على السياسة الداخلية الامريكية وتمثلت في اتجاه يميني شق الإئتلاف الذي كان يدعم الحزب الديمقراطي، وجاءت نتيجة التفاعل بين الأفعال او التحركات السوفيتية والاتجاهات السياسية الامريكية مؤكدة الرأي القائل ان الحرب الباردة بقيت مستمرة وان الآنفراج لم يستطع البقاء.

ولكن، رغم ذلك، لم يكن تجدد الخصومة في الثمانيات يشبه عودة الى حرب الخمسينات الباردة، على الرغم من وجود أقوال وأدبيات الخمسينات، لكن الأفعال كانت مختلفة تماماً، فنجد الرئيس رونالد ريغان يصف في حديثه الإتحاد السوفييتي بأنه (إمبراطورية شريرة) لكنه عملياً يخطط لإبرام اتفاقية رقابة على السلاح، وازدادت التجارة مع السوفيت في عهده وخاصة تصدير القمح، وكانت هناك اتصالات مستمرة بين الامريكان والسوفييت، بل ان القوتين العظميين استنبطتا قواعد حكمة واحتراس معينة في سلوكها الواحدة تجاه الآخرى، فلا حرب مباشرة ولا استعمال للأسلحة النووية ومناقشات لمسألة التسلح والرقابة على الأسلحة النووية، كانت حرباً باردة من نوع آخر تختلف عن حرب الخمسينات.

نهاية الحرب الباردة:

متى انتهت الحرب الباردة؟ بما ان جذور الحرب الباردة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتقسيم أوروبا بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي، فان نهاية الحرب الباردة يمكن ربط تاريخها بنهاية التقسيم، أي عام ١٩٨٩، فيوم أحجم الإتحاد السوفييتي عن استعمال القوة لدعم الحكومة

الشيوعية بألمانيا الشرقية وخرقت الجماهير المبتهجة جدار برلين في تشرين الثاني ١٩٨٩ هو اليوم الذي انتهت فيه الحرب الباردة.

لكن لماذا انتهت؟ أحد الاجتهادات يرجع الفضل في ذلك الى سياسة الاحتواء، كان من رأي جورج كينان، غداة الحرب العالمية الثانية، ان الشيوعية السوفييتية لابد ان تلين إذا استطاعت الولايات المتحدة منع الإتحاد السوفييتي من التوسع وإيجاد منافذ للأيديولوجية الشيوعية، عندئذ تبرز آراء جديدة ويدرك الناس ان الشيوعية ليست بالضرورة موجة المستقبل والتاريخ ليس الى جانب السوفييت، لقد كان كينان مصيباً في الاطار العريض للصورة المستقبلية، فما يدعو للحيرة هو التوقيت، لماذا في عام ١٩٨٩؟ لماذا امتدت الحرب الباردة أربعة عقود؟ لماذا احتاجت الشيوعية السوفييتية كل هذه السنين لكي تلين؟ لماذا لم تمتد عشر سنوات آخرى؟ نعم فعلت سياسة الاحتواء فعلها، لكن هذا لا يقدم إجابة كاملة.

التفسير الآخر هو (الترهل الإمبريالي) يقول المؤرخ (بول كينيدي) ان الإمبراطوريات تستمر في زيادة التوسع الى ان تمتص زيادة التوسع هذه قوة الإمبراطورية الداخلية، وهكذا الحال مع الإتحاد السوفيتي، فكان لابد ان يصل حالة الترهل هذه وهو الذي ينفق اكثر من ربع ميزانيته على الدفاع والشؤون الخارجية (مقابل ٦ بالمائة كانت الولايات المتحدة تنفقها لهذه الأغراض في الثمانينات)، ويمضي كينيدي فيؤكد ان لا إمبراطورية متعددة القوميات مترهلة في التاريخ انسحبت الى داخل حدود أرضها الوطنية إلا إذا هزمت في حرب كبرى على الزعامة او خرجت منهوكة منها، غير ان الإتحاد السوفييتي لم يهزم في حرب او يخرج منها منهوكاً، التفسير الثالث هو ان التسلح الامريكي الكبير في الثمانينات اجبر السوفيت على التسليم في الحرب الباردة، ان في هذا التفسير جانباً من الصواب إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما كشفت سياسات الرئيس رونالد ريغان عنه من ترهل إمبريالي سوفييتي مخيف، لكنه –أي التفسير– لا يجيب على السؤال الأساس، على أي حال، فالفترات الأولى من التسلح الامريكي لم يكن لها هذا التأثير، لماذا عام ١٩٨٩؟ علينا ان نبحث عن أسباب اعمق، فحين نظن ان السياسة والخطب

الرنانة الامريكية في الثمانيات هي السبب الأول لتدهور الإتحاد السوفييتي نكون مثل الديك الذي ظن ان صياحه قبل الفجر هو الذي يجعل الشمس تشرق.

نستطيع ان نفسر انتهاء الحرب الباردة على نحو افضل بتأمل أنماط الأسباب الثلاثة: المعجل والمباشر (او الوسيط) والعميق ان أهم سبب معجل بنهاية الحرب الباردة فرد يدعى (ميخائيل غورباتشوف)، أراد ان يصلح الشيوعية لا ان يستبدلها، على ان الإصلاح هبط مثل كرة ثلجية متنامية (**SNOWBALL**) في ثورة متصاعدة من القاعدة رغم كونها موجهة من القمة، فقد قام غورباتشوف بعدد من الأفعال، في سياساته الداخلية والخارجية معاً، عجلت بالتدهور السوفييتي وسرعت نهاية الحرب الباردة.

حين جاء الى السلطة أول مرة عام ١٩٨٥ حاول تنظيم أوضاع الشعب السوفييتي كوسيلة للتغلب على الركود الإقتصادي وحين عجزت المحاولة عن حل المشكلة طرح فكرة البريسترويكا او إعادة الهيكلة، إلا انه لم يستطع إعادة الهيكلة من فوق لان بيروقراطيي جهاز الدولة راحوا يعرقلون تنفيذ أوامره، ولكي يشعل النار تحت أقدام البيروقراطيين استعمل ستراتيجية الـ(غلاسنوست GLASNOST) او النقاش المفتوح واعتماد الديمقراطية، وكان في تقديره ان تغذية استياء الشعب – الناس– من طريقة عمل النظام يسلط الضغط على البيروقراطيين ويسمح للبريسترويكا بالعمل، ولكن ما ان سمح بالنقاش المفتوح واعتمد الديمقراطية وسمح للناس بان يعبروا عما يدور في خلجاتهم ومخيلتهم ويختاروا ما يريدون، حتى قال الكثيرون (نريد الخروج، لاشيء اسمه نمط جديد من الآنسان الروسي، هذه عائلة مالكة إمبريالية، ونحن لا ننتمي لهذه الإمبراطورية).

لقد أطلق غورباتشوف العنان لتفكك الإتحاد السوفيتي هذا التفكك الذي ازداد وضوحاً عقب فشل "انقلاب الصقور" في آب (اغسطس) ١٩٩١، وبحلول شهر كانون الأول من العام نفسه اختفى من الوجود شيء اسمه الإتحاد السوفييتي.

وساهمت سياسة غورباتشوف الخارجية، التي أطلق عليها (التفكير الجديد) في إنهاء الحرب الباردة، كان لهذه السياسة عنصران مهمان جداً، أحدهما مبدأ الأمن المشترك الذي أمكن

بموجبه الإفلات من اسر المعضلة الأمنية الكلاسيكية – القديمة– وذلك باشتراك الأطراف بتوفير الأمن، فقد رأى غورباتشوف، ومن حوله، ان عالماً على هذا القدر المتزايد من الاعتماد المتبادل يصبح الأمن فيه لعبة تضامن والكل يستفيد من خلال التعاون، وان وجود التهديد النووي يعني هلاك الجميع لو خرج السباق من حدود السيطرة، وبدلاً من محاولة صنع اكبر قدر ممكن من الأسلحة النووية، أعلن غورباتشوف مبدأ (كفاية) محتفظاً بذلك بأقل عدد من الأسلحة النووية يكفي للدفاع، ثمة بعد آخر لسياسة غورباتشوف الخارجية هو رأيه بان التوسعية، من حيث المردود، مكلفة اكثر مما هي مفيدة، فالسيطرة السوفيتية على إمبراطورية في شرقي أوروبا باهضة التكاليف قليلة المردود وكان غزو أفغانستان كارثة فادحة الثمن، فلم يعد من الضروري فرض نظام اجتماعي شيوعي كوسيلة لحفظ أمن الحدود السوفييتية.

وهكذا بحلول صيف عام ١٩٨٩ منح الأوروبيون الشرقيون درجات اكبر من الحرية، فسمحت هنغاريا (المجر) للالمان الشرقيين بالهرب الى النمسا عبر أراضيها، وكان لتلك الهجرة الجماعية ضغط شديد على حكومة ألمانيا الشرقية، ولم تعد حكومات أوروبا الشرقية تملك القدرة (ولا الدعم السوفييتي) على سحق المظاهرات، وفي تشرين الثاني اخترق جدار برلين – وكانت تلك ذروة تصاعد الأحداث التي انهمرت في فترة من الزمن قصيرة جداً.

يمكننا الاجتهاد بان هذه الأحداث نشأت عن سوء حسابات غورباتشوف، فقد ظن ان الشيوعية يمكن إصلاحها، ولكنه احدث فيها ثقباً صغيراً أثناء محاولة التصليح، ومثل ثقب في جدار سد ما ان يبدا ضغط المياه المحصورة بالازدياد حتى يأخذ الثقب بالتوسع بسرعة هائلة ومن ثم ينهار السد كله.

هذا كله لا يجيب على السؤال: لماذا في عام ١٩٨٩؟ لماذا في أيام هذا الزعيم؟ ان غورباتشوف صدفة في التاريخ، الى حد ما، في أوائل الثمانيات كان ثلاثة زعماء سوفييت قدامى ماتوا بسرعة واحدً اثر الآخر، ولم تتح فرصة الظهور للجيل الأصغر سناً، الناس الذين عملوا تحت زعامة خروتشيف وصاروا يعرفون باسم (جيل ١٩٥٦) قبل عام ١٩٨٥، ولكن لو كان أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي واحداً غير غورباتشوف من منافسيه المتشددين فلربما كان الإتحاد

السوفييتي المتدهور سيمتد به العمر عقداً آخر من السنين، فما كان له ان ينهار بمثل تلك السرعة، ان في شخصية غورباتشوف تفسيراً كثيراً لمسألة التوقيت، الأسباب المباشرة فيتفق عليها كينان وكيندي معاً.

ان السببين المباشرين المهمين هما: الأفكار الليبرالية والترهل الإمبريالي، فالأفكار الليبرالية الداعية للانفتاح والديمقراطية والتفكير الجديد، التي استعملها غورباتشوف، كانت أفكاراً غربية تبناها جيل عام ١٩٥٦، وقد ساعد نمو الاتصالات بين الدول في نشر الأفكار الليبرالية، واضاف الى قوة تأثيرها ما شاهده الناس من نجاح للإقتصاد الغربي، ثم هناك الترهل الإمبريالي، كانت ميزانية الدفاع الثقيلة قد بدأت تؤثر على اوجه المجتمع السوفييتي الآخرى، فتدهورت العناية الصحية وارتفع معدل الوفيات (البلد المتطور الوحيد الذي شهد هذه الحالة)، وانتهى المطاف به الى ان صار العسكريون أنفسهم يدركون ثقل العبء الذي سببه الترهل الإمبريالي، وفي عام ١٩٨٤ أدرك المارشال اوغاركوف، رئيس الأركان السوفييتي، ان بلاده تحتاج الى قاعدة إقتصادية مدنية افضل ومزيد من الوصول الى التجارة والتكنولوجيا الغربيتين، لكن الزعماء القدامى رفضوا الإصغاء لاوغاركوف وعزلوه من منصبه.

من هذا نتبين مدى أهمية السببين المباشرين: الأفكار اللبرالية والترهل الإمبريالي، إلا أننا لا نملك في نهاية الامر، إلا ان نتعامل مع السببين العميقين، تدهور الأيديولوجيا الشيوعية وفشل الإقتصاد السوفييتي، كان فقدان الشيوعية الشرعية في فترة ما بعد الحرب مثيراً، في المرحلة الأولى من تلك الفترة، أي بعد عام ١٩٤٥ مباشرة لقيت الشيوعية استحساناً واسعاً، فالعديد من الشيوعيين قادوا المقاومة ضد الفاشية في أوروبا، واعتقد الكثيرون بان الشيوعية موجة المستقبل وكسب الإتحاد السوفييتي قدراً عظيماً من القوة بسهولة بفضل أيديولوجيته الشيوعية، لكن هذه القوة اختزلت الى حد ما في الحملة على ستالين، عام ١٩٥٦، التي أماطت اللثام عن جرائمه وأعمال القمع في المجر عام ١٩٥٦، وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وبولندا عام ١٩٨١، وازدياد انتشار الأفكار الليبرالية، وراء هذا كان تدهور الإقتصاد السوفييتي أيضاً، كاشفاً بذلك عن تضاؤل قدرة التخطيط المركزي السوفييتي على الاستجابة للتغيرات الإقتصادية في العالم، كان ستالين قد

خلق نظام إدارة إقتصادية مركزية يقوم على المعادن الثقيلة والمصانع التي يسودها الدخان، إقتصاد متخشب آخرق، كان المراد منه تكديس القوى العاملة لا الآنتقال به الى مستوى الصناعات التي تلبي الحاجات المتزايدة، لقد أشار الإقتصادي (جوزيف شومبيتر – سكمبيتر) الى ان الرأسمالية تدمير خلاق، شكل من الاستجابة المرنة لموجات التغيير التكنولوجي الكبيرة، والتغير التكنولوجي الكبير في الثورة الصناعية الثالثة، أوآخر القرن العشرين، هو تنامي دور الإعلام –حركة المعلومات– باعتباره اندر المصادر في إقتصاد ما، وكان النظام السوفييتي بعيداً عن المقدرة على استثمار مضمار الإعلام والمعلومات وذلك لان طبيعة نظامه السياسي المفرطة في السرية والتكتم تعني ان حركة المعلومات لابد ان تكون بطيئة ومتعثرة.

ولم تستطع المنتجات السوفييتية الإرتقاء الى مستوى الطلب العالمي، لقد ساد الإقتصاد العالمي اضطراب كبير في أوآخر القرن العشرين، لكن إقتصاديات الغرب استطاعت ان تنقل العمل الى مضمار تلبية الخدمات وتعيد تنظيم صناعاتها الثقيلة وتتحول الى استخدام الكومبيوتر. الإتحاد السوفييتي لم يستطع مواكبة التحولات في التكنولوجيا، اتصالات، اعلام، معلومات، ... الخ، مثلاً: يوم جاء غورباتشوف الى السلطة، عام ١٩٨٥ كان في الإتحاد السوفييتي (٥٠٠٠٠) جهاز كومبيوتر خاص، في حين كان بالولايات المتحدة (٣٠) مليون جهاز، وبعد أربع سنوات اصبح في الإتحاد السوفييتي (٤٠٠٠٠٠) جهاز كومبيوتر مقابل٤٠ مليون في الولايات المتحدة، لقد أثبتت معرفة حركة الأسواق والسياسات الديمقراطية إنها اشد مرونة في الاستجابة للتغيرات التكنولوجية من نظام المركزية السوفييتي الذي وضعه ستالين لحقبة صناعات المداخن في الثلاثينات، ويقول أحد الإقتصاديين السوفييت ان ثمانية بالمائة فقط من مجموع الصناعات السوفيتية كانت قادرة على دخول المنافسة بالسوق العالمية في أوآخر الثمانيات فمن الصعب ان تبقى دولة عظمى محتفظة بمركزها حين يكون ٩٢ بالمائة من صناعتها بمستوى هابط.

ان انهيار الحرب الباردة من اعظم التنقلات في قرن العشرين، فهي معادلة للحرب العالمية الثانية من حيث تأثيرها في بنية النظام الدولي، لكنها جرت بدون قتال، وسنتناول في الفصول القادمة ما يعنيه بالنسبة للسياسة الدولية في المستقبل.

انتهت الحرب الباردة في عام ١٩٨٩، لكن بعض العلماء مثل جون ميرزهايمر، يرى ان السلام الأوروبي قد لا يدوم، كما يفترض اغلب المراقبين في الوقت الحاضر، قد لا تعود روسيا الى احتلال كل جيرانها الأوروبيين الشرقيين، ولكن النزعة القومية الروسية قد تتظافر مع ضعف الديمقراطية وتؤديان الى تجدد الروح التوسعية في المستقبل، فما ان تمر روسيا بفترة هيجان داخلي كحتى تتحول بأنظارها الى بحر البلطيق واوكرانيا وأوروبا الشرقية، فإذا حصل هذا فلن يكون عام ١٩٨٩ سوى فترة هدوء موقت وسط عاصفة عاتية طويلة الأجل ومهما يبدو هذا السيناريو بعيد الاحتمال، فان الدراسة المتأنية للسياسة الدولية تقودنا الى استنتاج ان هذا الاحتمال غير مستبعد كلياً.

لقد حدث تحول كبير في روسيا بعد تفكك الإتحاد السوفييتي، فبعد نبذ إقتصاد الدولة السوفييتية المرسوم اعتمدت روسيا ما بعد الحرب الباردة برنامجاً جريئاً للسير في طريق الديمقراطية وتحرير الإقتصاد، على ان الدرب كان محفوفاً بالأخطار، فقد اعتمدت الحكومة الروسية، بناء على نصيحة البنك الدولي، إقتصاد (العلاج بالصدمة) كسبيل للانتقال من الاوتوقراطية الإقتصادية الى الديمقراطية –الليبرالية–الحرة، لكن (العلاج بالصدمة) اربك المجتمع الى الحد الذي جعل الحكومة تبادر الى تنحيته جانباً مفضلة عليه العلاج التدريجي، ومع تردي الوضع الإقتصادي وجدت النزعة القومية الروسية بيئة صالحة للنشاط.

ان المنظرين، من أمثال (مايكل دوبل) الذين يفترضون ان الديمقراطيات الليبرالية لا تحارب بعضها بعضاً، توصلوا الى ان على روسيا، لكي تنجح بالآنتقال الى الديمقراطية، ان تدعو للسلام الدولي، ولا بد ان يمر وقت قبل ان نتمكن من رؤية مدى استجابة السياسة الخارجية السوفييتية لشروط السلام الديمقراطي، او عودة النعرة القومية الروسية، التي تتحدى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، الى الظهور.

يظل هنا لغز كبير، بصرف النظر عما يخبئه المستقبل: لماذا استمرت الحرب الباردة كل هذه الفترة الطويلة من دون ان تندلع (حرب فعلية) بين الدولتين العظميين، لماذا لم تتحول من قبل الى حرب عالمية ثالثة؟

دور الأسلحة النووية:

لماذا لم تتحول الحرب الباردة الى حرب فعلية، يعتقد بعض المحللين بان المجتمعات المتطورة المتقدمة تعلمت من درس الحربين العالميتين الأولى والثانية واخذت منها عبرة، ويرى آخر ون ان فترة (السلام الطويل) في النصف الثاني من القرن العشرين سببها محدودية أهداف الدول الكبرى التوسعية، فيما يرجع فريق ثالث هذا السلام الى طبيعة الاستقرار الذي تنطوي عليه الثنائية القطبية النقية حيث تسيطر دولتان (لا تحالفان متشددان) لكن اغلب المحللين يتفقون على ان اكبر قدر من الإجابة يكمن في الطبيعة الخاصة للأسلحة النووية والردع النووي.

الفيزياء والسياسة:

ان طاقة الأسلحة النووية التدميرية الهائلة تفوق التصور والخيال، فانفجار ميغا طن نووي يمكن ان يصنع درجة حرارة تبلغ مائة مليون درجة مئوية– أي أربعة او خمسة أضعاف درجة الحرارة في وسط الشمس، كانت القنبلة التي ألقيت على هيروشيما عام ١٩٤٥ صغيرة نسبياً – أي ما يعادل انفجار (١٥٠٠٠) طن من مادة (TNT) واليوم يمكن للصواريخ ان تحمل قوة انفجارية تعادل قنبلة هيروشيما ثلاثين مرة، والحقيقة ان كل ما استعمل من متفجرات في الحرب العالمية الثانية يكفي الآن لملء قنبلة نووية واحدة زنة (٣) ميغا طن وان هذه القنبلة يمكن ان يحملها راس أحد الصواريخ الكبيرة عابرة القارات، في الثمانيات كان لدى الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي اكثر من خمسين الف سلاح نووي.

ان بعض التأثيرات الفيزيائية للتفجيرات النووية ما زال غير مؤكد حتى الآن، مثال على ذلك ان نظرية الشتاء النووي تفيد ان الحرب النووية تسبب الكثير من الكاربون والغبار في الجو بما يؤدي الى حرمان النبات من عملية التركيب الضوئي، أي الى انتهاء الحياة بالصورة التي نعرفها، وذكرت دراسة لأكاديمية العلوم الوطنية الامريكية ان الشتاء النووي ممكن، إنما غير مؤكد، فجانب كبير من النتائج يعتمد على وجهة الأسلحة النووية – ان كانت المدن او الأسلحة النووية المقابلة– ان حرق المدن بسبب تصاعد دخان ذي نسبة عالية من الكاربون تحجب ضوء الشمس، ولكن لا أحد يعرف على وجه التحديد كم يبقى الدخان منتشراً في الجو العالي.

واذا انفجرت القنابل في نصف الكرة الشمالي فهل ينتقل الدخان الى النصف الجنوبي؟ بعض المتشائمين يقول ان النتيجة الأسوأ ليست الشتاء النووي، بل الخريف النووي– شيء من عزاء بائس. الامر الأكيد ان حرباً نووية واسعة النطاق تدمر حضارة نصف الكرة الشمالي على الاقل، ولعل الأساقفة الكاثوليك الامريكان بالغوا حين قالوا في تقريرهم عام ١٩٨٣: نحن أول جيل منذ (التكوين) يملك القدرة على تدمير مخلوقات الله[١].

لقد أحدثت الأسلحة النووية تغييرات في طبيعة الحرب، لكنها لم تغير الطريقة الأساسية لتنظيم العالم، فقد استمر عالم الدول الفوضوية وغياب الحكومات العليا بالبقاء في العصر النووي.

فيوم اقترحت الولايات المتحدة (مشروع باروخ) عام ١٩٤٦، لاقامة رقابة دولية على الأسلحة النووية، اعتبر الإتحاد السوفييتي المشروع مجرد مؤامرة –مكيدة– امريكية آخرى.

بعد هذا الفشل قال البرت اينشتاين بحزن ولوعة شديدين ان كل شيء تغير إلا تفكيرنا، كأني به أراد ان يقول ان الفيزياء اسهل من السياسة.

ثمة أسباب عسكرية وسياسية وراء عدم ممارسة الأسلحة النووية تأثيراً أقوى غداة الحرب العالمية الثانية، أحد الأسباب ان السلاح الذري الأول لم يحدث أضرارا اكبر بكثير من تلك التي سببتها حشود الأسلحة التقليدية في اشد استعمالاتها ضراوة وتدميراً، فالقصف بالنار الذي تعرضت له مدينة دريسدن بألمانيا قتل من البشر اكثر مما فعلته قنبلة هيروشيما، صحيح ان سلاحاً ذرياً واحدا قام بعمل هجوم جوي وشامل بالأسلحة التقليدية، إلا ان الولايات المتحدة ما كانت تملك أسلحة نووية كثيرة يومذاك، فكان لديها قنبلتان عام ١٩٤٧ و(٥٠) عام ١٩٥٨، ذلك لان العديد من خبراء التخطيط العسكري كانوا يشعرون بان القنابل الذرية لا تختلف تماماً عن الأسلحة التقليدية، بل انها مجرد توسيع للحرب التقليدية.

---

(١) تحدي السلام: وعدالله واستجابتنا، بيان "المؤتمر الكاثوليكي في الولايات المتحدة" مجلة نشرة الاصول،المجلد ١٣، العدد الاول، ١٩ آيار ١٩٨٣، ص١.

وكان ظهور التنافس الامريكي– السوفييتي عاملاً آخر في إبطاء تغير التفكير السياسي، فقد ارتاب السوفييت بالأمم المتحدة متهمينها بشدة الاعتماد على الولايات المتحدة، ولم يستطع الامريكان إجبار السوفييت على التعاون لان أوروبا كانت رهينة بينهما.

فلو هددت الولايات المتحدة السوفييت بهجوم نووي هدد هؤلاء بغزو أوروبا بقوات تقليدية، وكانت النتيجة حالة جمود بلا تقدم ولا تراجع، ولم تكن التأثيرات الفيزياوية الثورية التي جاءت بها التكنولوجيا النووية كافية باديء الامر لجعل الدول تغير طرق تصرفها في ظل نظام فوضوي.

حصلت المرحلة الثانية من الثورة النووية يوم جرى تفجير أول قنبلة هيدروجينية عام ١٩٥٢، وتعتمد القنبلة الهيدروجينية على طاقة التفجير حين يجري التحام الذرات داخل القنبلة بدلاً من فلقها كما في قنابل الآنفلاق السابقة، وقد زادت هذه القنبلة من حجم الدمار الذي تحدثه قنبلة واحدة.

وحدث اكبر انفجار على سطح الأرض عام ١٩٦١ حين فجر السوفييت قنبلة هيدروجينية بقوة ٣٠ ميغا طن، أي بقدر مجموع ما فجر في الحرب العالمية الثانية عشرين مرة.

المفارقة المؤلة ان أهم تغيير رافق تطور القنبلة الهيدروجينية هو تصغير الحجم، فقد جعل التحام الذرات بالإمكان شحن مقادير هائلة من القوة الآنفجارية في حيز مكاني صغير، وصارت الآنظمة التي أنشأت لانتاج القنابل الذرية الأولى، تكبر باضطراد ما دامت القنابل تكبر حجماً وتحتل مكاناً اكبر، فالطائرة (بي–٣٦) القاذفة العملاقة بثمانية محركات، فيها تجويف كبير يتسع لقنبلة واحدة، ففي حين ان القنبلة الهيدروجينية، التي تملك نفس القوة الآنفجارية، يمكن ان توضع في اسطوانة صغيرة، فإذا ما وضعت هذه القوة التدميرية الهائلة في رأس صاروخ عابر قارات فمن الممكن، عندئذ، ان تندلع حرب نووية بين القارات في غضون ٣٠ دقيقة (المدة التي يستغرقها الصاروخ) مقابل ثماني ساعات تحتاجها الطائرة (بي–٣٦) لقطع المسافة نفسها. كذلك زادت قوة القنبلة الهيدروجينية التدميرية من خطورة النتائج التي تترتب على الحرب النووية، إذا ما عدت الحرب امتداداً للسياسة بطريقة آخرى.

كان من رأي (كارل فون كلاوزه فيتز) فيلسوف الحرب في القرن التاسع عشر، ان الحرب فعل سياسي، ولذا فالحرب المطلقة محض هراء، لكن القوة التدميرية الهائلة للأسلحة النووية صارت تعني الآن ان ثمة تفاوت بين الوسائل العسكرية وغالبية الغايات السياسية التي ينشدها بلد ما، هذه الهوة بين الغايات والوسائل شلت إمكانية استعمال القوة الأخيرة في اغلب الحالات، فلم تستعمل الأسلحة النووية منذ عام ١٩٤٥، وعلى هذا فالنظرة الى الأسلحة النووية هي إنها قوة مجمدة، ذلك لانها بالغة القوة، شديدة التفاوت.

كان للقنبلة الهيدروجينية خمسة تأثيرات سياسية مهمة، وان لم يعد تنظيم الأسلوب الفوضوي الذي يصرف العالم به شؤونه، أولهما إنها أنعشت مبدأ الحرب المحدودة، فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين تحولاً من حروب القرن التاسع عشر المحددة الى حربين عالميتين أزهقت عشرات الملايين من الأرواح، وفي منتصف القرن صار المحللون يشيرون الى القرن العشرين على انه (قرن الحرب الشاملة) لكن حروب النصف الثاني من القرن جاءت شبيهةً بحروب القرنين الثامن والتاسع عشر، فالحرب الكورية والفيتنامية، مثلاً، كلفت كل منهما الامريكان (٥٥) الف قتيلا، وفي فيتنام وأفغانستان فضلً كل من الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي الهزيمة على استعمال السلاح الأخير.

ثانياً: حلت الأزمات محل الحرب المركزية كساحة نزال، ففي حين كانت الحرب هي السبيل لكشف كل الأوراق، ولكن الحرب، في العصر النووي شديدة التدمير وساعة المنازلة القديمة بالغة الخطورة، فأثناء الحرب الباردة قامت أزمة برلين وأزمة الصواريخ الكوبية وأزمات الشرق الأوسط في السبعينات بدور وظيفي يعادل الحرب.

ثالثاً: الأسلحة النووية جعلت الردع (تثبيط العزيمة بواسطة التخويف) ستراتيجية رئيسية، فقد اصبح من العوامل الحاسمة الآن ان تنظم القوة التي تخيف خصمك سلفاً وبذلك تردعه عن مهاجمتك، إذا كانت الولايات المتحدة استطاعت، أثناء الحرب العالمية الثانية ان تعبيء وتنمي آلتها الحربية بصورة تدريجية، فان طريقة التعبئة تلك لم تعد نافعة في وقت اصبح اندلاع الحرب النووية وانتهائها لا يتعدى الساعات.

التأثير السياسي الرابع هو تطوير واقع نظام احتراس الدول الكبرى، فالدولتان العظيمتان طورتا مصلحة واحدة مشتركة: تجنب الحرب النووية، رغم كل الاختلافات الأيديولوجية المريرة بينهما، فأثناء الحرب الباردة انخرطت الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي، نيابة او بصورة غير مباشرة، في حروب على الأطراف ولكن لم تدخل الدولتان قط في مواجهة مسلحة مباشرة، أضف الى ذلك ان الدولتين طورتا مناطق نفوذهما الخاصة، من ذلك ان الولايات المتحدة لم تسارع الى نجدة المجريين حين ثاروا على حكامهم السوفييت عام ١٩٥٦ مخافة اندلاع مواجهة نووية، رغم ادعاء الامريكان العمل على دفع الشيوعية الى التراجع عن شرقي أوروبا، والشيء نفسه فعله السوفييت من حيث الحذر من التدخل في نصف الكرة الغربي، باستثناء كوبا، فقد التزم الجانبان بتطوير نوع من تقليد يقضي بعدم استعمال الأسلحة النووية، واخيراً فقد تعلمت الدولتان العظيمتان ان تقيما اتصالات بينهما، ففي أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية أقامت الدولتان خطاً هاتفياً (حاراً) بينهما يوسع سرعة الاتصال بين الزعماء السوفييت والامريكان. ووقعتا عددا من معاهدات الرقابة على السلاح، ابتداء من معاهدة الحد من التجارب النووية عام ١٩٦٣، وصارت مفاوضات الرقابة على إنتاج السلاح وسيلة لبحث مسائل استقرار نظام الأسلحة النووية.

خامساً: صار اغلب المسؤولين ينظر الى الأسلحة النووية عامة، والقنبلة الهيدروجينية خاصة، على أنها غير قابلة للاستعمال في أيام الحرب، فلم تعد المسألة مسألة ما تحمله القنبلة الهيدروجينية من قوة تدميرية، فقد اقترنت الأسلحة النووية بحالة من الشعور بالإثم لم تشهدها الأسلحة التقليدية، والحق ان المهندسين والعلماء استطاعوا في أوآخر ستينات القرن الماضي، تقليص شحنات الأسلحة النووية، بما يسمح للولايات المتحدة باستعمال بعض تلك الأسلحة في فيتنام او حرب الخليج او ضد الإتحاد السوفييتي في أفغانستان دون إلحاق أضرار بمستوى ما تسببه القنبلة الهيدروجينية، ومع ذلك أحجم الامريكان والروس على حد سواء، عن استعمال الأسلحة النووية قليلة الشحنة، مفضلين استعمال أدوات تدميرية آخرى مثل قنابل النابالم والقنابل المحرقة وغيرها من الأسلحة التقليدية، وكان مرد هذا الأحجام، في جانب منه، الخوف من ان استعمال أسلحة نووية قليلة الشحنة، حتى لو كانت بقوة الأسلحة التقليدية،

كفيل بان يفتح الباب أمام استعمال كل أنواع الأسلحة النووية، وتلك مخاطرة لا يمكن قبولها، ومع ذلك فثمة بعد آخر، فمنذ إلقاء القنبلة الذرية الامريكية على هيروشيما والناس يساورهم شعور بان الأسلحة النووية غير أخلاقية، أنها تجاوزت حدود ما تقبله الحرب، ولئن كان من الصعب قياس هذا الكابح الأخلاقي، فمن الواضح انه كان محفزاً للتداول بشان السلاح النووي واحد أسباب ابتعاد الدول عن استعماله.

الأسلحة النووية والحرب الفيتنامية:

حين قرر الرئيس كينيدي زيادة الوجود العسكري الامريكي بدرجة كبيرة في الفترة ١٩٦٢-١٩٦٣، كان يفكر بمسألتين: ماذا كان سيحصل لو ان خروتشيف لم يصدقه بشان أزمة برلين عام ١٩٦١-١٩٦٢ وماذا كان سيحصل لو لم يصدقه خروتشيف في أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢؟ اظننا أخطأنا باستنتاج ان الصينيين ما كانوا سيدخلون الحرب الكورية في الخمسينات وان ذلك اثر في القرار الامريكي بعدم غزو فيتنام الشمالية، فقد قرر العسكريون ان الصين لا تتدخل واذا فعلت فسوف يؤدي ذلك الى الحرب[1].

وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية دين رسك

ميزان الإرهاب او ميزان الرعب:

خلقت الأسلحة النووية شكلاً غريباً من ميزان القوى أطلق عليه (ميزان الإرهاب) أحيانا، فكانت اختبارات القوة نفسية اكثر منها مادية، واتبع الطرفان سياسة الحيلولة دون تفوق أحدهما على الآخر، لكن النتيجة جاءت مختلفة عن نظم التوازن السابقة، ذلك ان ميزان الحرب الباردة، بعكس نظام ميزان قوى القرن التاسع عشر ووجود خمس دول كبرى تغير تحالفاتها، انتظم بوضوح حول دولتين ضخمتين كل واحدة منهما قادرة على تدمير الآخرى في لحظة.

ان المشاكل التي تثيرها معضلة الأمن الكلاسيكية لم تنته بإرهاب الأسلحة النووية، لكن الدول الكبرى تصرفت بحذر رغم اختلافاتها الأيديولوجية، ويشبه حذرها تأثيرات الاتصالات المستمرة التي كان لها دورها في الاحتفاظ بميزان القوى متعدد الأطراف في القرن التاسع عشر،

(١) وزير الخارجية، ديك رسك، صحيفة نيويورك تايمز، ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٨٣ ، ص ٦.

وحاولت الدول الكبرى في الوقت نفسه، ان تحسب توازنات القوة، مثلما كان زعماء الماضي يقارنون في حساباتهم بين الأقاليم والجيوش والمدفعية.

تزامن ميزان الإرهاب مع الفترة ثنائية القطبين، ويعرف بعض علماء السياسة، مثل (كينيث والتز) ثنائية القطبين بأنها الحالات التي تملك فيها دولتان كل القوة تقريباً.

لكن هذا النوع من ثنائية القطبين الخالصة نادر، فالحالة الغالبة ان هذه الثنائية تحصل في التاريخ حين تتصلب الأحلاف وتفقد مرونتها كما حدث في الحرب البيلوبونيزية، فدول المدن التي تحالفت مع أثينا وسبارطة كانت مستقلة، لكن الأحلاف تمحورت وتصلبت بما أوصلها الى حالة الثنائية القطبية، والحالة نفسها حصلت عشية الحرب العالمية الأولى، إذ تصلب نظام التحالف ليتحول الى ثنائية قطبين.

ويرى والتز ان الثنائية القطبية نمط مستقر من نظام توازن القوى لانه يبسط الاتصالات، فيما تفتقر أنظمة الثنائية القطبية، من الناحية الآخرى، الى المرونة وتغالي في أهمية الصراعات التي تدور في الأطراف كالحرب الفيتنامية، وتقول الحكمة التقليدية القديمة ان الثنائية القطبية تنتهي الى واحد من أمرين: أما التآكل او الآنفجار، فإذا صح هذا فلماذا لم تنفجر الثنائية القطبية بعد الحرب العالمية الثانية، إذن؟ ربما يكون الحذر الذي أفرزته الأسلحة النووية يحمل الإجابة، وما الاستقرار، الذي عزاه (والتز) الى الثنائية الخالصة، إلا نتيجة للقنبلة الهيدروجينية فقد يكون الرعب الناشيء عن الأسلحة النووية عاملاً في تحقيق الاستقرار ، تخيل لو ان قيصر ألمانيا وقيصر روسيا وإمبراطور النمسا صدقوا بالكرة البلورية للطالع في آب (اغسطس) ١٩١٤ وقرأوا فيها صورة عام ١٩١٨ لكانوا عندئذ، رأوا كيف فقدوا عروشهم وتشتتت جيوشهم وقتل الملايين من أبناء شعوبهم، فهل كانوا سيضطرون الى الحرب؟ ربما لا.

وقد تكون الآثار المادية للأسلحة النووية أشبه بآثار إعطاء قادة الدول، في فترة ما بعد عام ١٩٤١، كرة بلورية لقراءة الطالع، ولما كانت الأهداف السياسية القليلة المنشودة لا تكاد تعادل مثل هذا الدمار فقد عزف قادة الدول عن الدخول في مخاطرات وخيمة العواقب، والكرات البلورية يمكن ان تتهشم بحادث او سوء تقدير، لكن المقارنة هنا تقول لنا لماذا أنتجت تركيبة

الثنائية القطبية والسلاح النووي أطول فترة سلام بين الدول المركزية –الكبرى– منذ بداية نظام الدولة الحديثة (كان الرقم القياسي السابق لمثل هذه الفترة هو من ١٨٧١ الى عام ١٩١٤).

مشاكل الردع النووي:

الردع النووي فرع من الردع العام، لكن ما ينفرد به السلاح النووي من خصائص غير أسلوب تعامل الدول الكبرى مع العلاقات الدولية أبان الحرب الباردة، فالردع النووي يطرح المحاججة المنطقية التالية: إذا هاجمتني فقد لا أستطيع منعك من الهجوم، لكنني أستطيع ان أرد عليك وانتقم بدرجة من الشدة تردعك. وهكذا أحدثت الأسلحة النووية تحولاً جديداً في مبدأ قديم.

ان أحد سبل تقدير مدى فاعلية الردع النووي هو تحليل التضاد (الحقائق المقابلة الممكنة) ما مدى احتمال تحول الحرب الباردة الى حرب حقيقية في غياب الإرهاب النووية؟ يرى عالم السياسة (جون ميللر) ان الإرهاب النووي سبقه صياح الديك، ويقول ان الشعوب الأوروبية نفرت من الحرب كأداة سياسية منذ شهدت أهوال الحرب العالمية الأولى، وما سبب السلام الا ازدياد الاعتراف بأهوال الحرب، في البلدان المتقدمة على الأقل، ويرى ميللر ان هتلر حالة انحراف، وشخصً خارج المألوف لم يتعظ من عبر الحرب العالمية الأولى وظل راغبا ومتعطشا الى الدخول في حرب، وغداة الحرب العالمية الثانية عاد النفور من الحرب أقوى واشد من ذي قبل. ان اكثر المحللين يعتقدون بان لحرب فيتنام دور كبير في تجنب وقوع حرب ثالثة، فربما كانت أزمات برلين وموسكو وكوبا والشرق الأوسط كافية لإشعال فتيل الحرب لولا ما غرسه الإرهاب النووي من حكمة وتعقل في النفوس كأنه كرة بلورية يقرأ الناس المستقبل فيها.

موضوع الردع هذا يطرح عدداً من الأسئلة، أحدها: ما الذي يردع؟ ان الردع الفعال يتطلب القدرة على أحداث الأذى ومصداقية استعمال الإرهاب، وتعتمد المصداقية على ما ينطوي عليه الصراع من أخطار، فتهديد امريكي بإلقاء قنبلة على موسكو انتقاماً ورداً على هجوم نووي امر فيه مصداقية، ولكن لنفرض ان الولايات المتحدة هددت بقصف موسكو، عام ١٩٨٠، لان السوفييت رفضوا الآنسحاب؟ لاشك ان امريكا تملك القدرة لكن تهديداً من هذا تعوزه المصداقية

لان مردود التهديد اقل بكثير من التهديد نفسه والسوفييت يمكن ان يهددوا بضرب واشنطن بالمقابل، وهكذا نجد ان الردع لا يتعلق بالقدرة وحدها، بل بالمصداقية أيضاً.

وتقودنا مشكلة المصداقية الى مسألة التفريق بين ردع التهديد الذي يستهدف الوطن وذلك الذي يستهدف الحلفاء، من ذلك ان الولايات المتحدة لم تستطع منع السوفييت من غزو أعقاب عن طريق الردع النووي، ولكن طوال أربعة عقود من الحرب الباردة كانت تهدد باستعمال الإرهاب النووية لو حاول الإتحاد السوفييتي غزو أعضاء حلف الأطلسي (الناتو) من دول أوروبا الغربية، إذن لو أردنا ان نبحث عن تأثير الإرهاب النووي في توصيل الردع وتجنب الحرب فعلينا ان نتوجه بأنظارنا الى الأزمات الكبيرة حيث المخاطر والمردودات عالية.

أيستطيع التاريخ الإجابة على هذه الأسئلة؟ وعن تأثير الإرهاب النووي؟ قد لا يستطيع تماماً، لكنه قد يساعد.

فمنذ عام ١٩٤٥حتى عام ١٩٤٩ كانت الولايات المتحدة وحدها تملك السلاح النووي، لكنها لم تستعمله، وأذن فقد كان هناك نوع من ردع النفس قبل نشوء الردع المتبادل، ان جزءاً من السبب يعود الى ضآلة الترسانة يومذاك والافتقار الى فهم هذا السلاح الجديد وخوف الامريكان من قيام السوفييت باحتلال أوروبا كلها بفضل قواتهم التقليدية الكثيفة. في الخمسينات كان الامريكان والسوفييت يملكون أسلحة نووية، وحدثت أزمات عدة ففكر الزعماء الامريكان أثناءها باستعمال السلاح النووي، ولم يستعمل الإرهاب النووي في الحرب الكورية او في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٨، حين عبأ الشيوعيون الصينيون قواتهم لغزو جزيرة تايوان التي يحكمها القوميون، لقد عارض الرئيسان ترومان وايزنهاور استعمال الإرهاب النووي مرات عدة، ففي الحرب الكورية لم تكن هناك وسيلة للتأكد من ان إلحاق قنبلة نووية كان سيوقف الصينيين وكانت الولايات المتحدة قلقة أيضاً بشان رد الفعل السوفييتي، فكان هناك دائماً خطر تصاعد التهديدات واحتمال استعمال السوفييت السلاح النووي لمساعدة حلفائهم الصينيين، وهكذا نجد انه كان هناك خطر التوجه الى حرب أوسع نطاقاً تتعدى كوريا والصين، وان كانت الولايات المتحدة تتمتع بتفوق من حيث عدد الرؤوس النووية.

كان للموقف والرأي العام دورهما، ففي الخمسينات قدرت الحكومة الامريكية ان عدد القتلى بين المواطنين سيكون كبيراً ولـذا طرحـت جانبـاً فكـرة اسـتعمال السـلاح النـووي، فحـين سـئل الرئيس ايزنهاور حول هذا الامر، قال: لا يمكننا استعمال تلك الأشـياء المخيفـة ضـد الاسـيويين للمرة الثانية[1].

وهكذا نجد ان جملة عوامل متداخلة دعت الامريكان الى عدم استعمال الإرهـاب النوويـة في الخمسينات رغم تفوقهم على السوفييت عددياً في هذا المجال.

أزمة الصواريخ الكوبية:

القضية الأولى –الرئيسية– كانت أزمة الصواريخ الكوبية في تشرين الأول ١٩٦٢. ربمـا تكـون هذه الأزمة الأشد إثارة لسلسلة من الأحداث كان يمكن ان تؤدي الى حرب نووية، لو قدر المشاهد من الخارج تماماً لـ(إنسان من المريخ) ان ينظر الى الوضع لكان رأى الولايات المتحدة متفوقة على الإتحاد السوفييتي في السلاح النووي بنسبة (١٧–١)، نحن نعرف الآن ان السـوفييت لم يكونـوا يملكون سوى عشرين صاروخا نوويا عابراً للقارات تستطيع الوصـول الى الولايـات المتحـدة، لكـن الرئيس كينيدي لم يكن يعرف هذه الحقيقة يومـذاك. لـماذا، إذن، لم تبـاغت الولايـات المتحـدة الإتحاد السوفييتي بهجوم على مواقع صواريخه التي كـانت في نطـاق القصـف نسـبياً؟ الجـواب حتى لو كان هناك صاروخ او اثنان يفلتان من التدمير ومن ثم يطلقان على مدينـة امريكيـة فتلـك مخاطرة وخيمة العواقب بما يكفي لردعها، يضاف الى ذلك ان كلاً من كينيدي وخروتشيف كانـا يخشـيان ان تخـرج الإسـتراتيجيات العقلانيـة والحسـابات الدقيقـة عـن فكرتـها، وهـا هـو خروستشيف يقول لكينيدي بلغة استعارة جميلة في إحدى رسائله إليه: (لاتنـس إننـا معـاً نشـد على طرفي الحبل الذي يعقد الآنشوطة حول رقبة الحرب)[2].

---

(١) ستيفن أمبروز، آيزنهاور (نيويورك: دار سايمن و شوستر، ١٩٨٣) ص١٨٤.

(٢) رونالد هوب، وجهات النظر السوفياتية في ازمة الصواريخ الكوبية: الخرافة و الواقـع في تحليـل السياسـة الخارجيـة (واشـنطن: مطبعة الجامعة الامريكية، ١٩٨٣) ص ٤٨.

في مؤتمر عقد بولاية فلوريدا، بعد خمس وعشرين سنة من الحادث، اجتمع الأمريكيون الذين كانوا على صلة باللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي أبان رئاسة كينيدي، مع عدد من الأساتذة والعلماء في محاولة لإعادة تركيب صورة الأزمة الكوبية، فكانت إحدى اشد نقاط الخلاف بين المشاركين مسألة تحديد مدى استعداد كل من الطرفين للمخاطرة، وهذا يعتمد بالمقابل، على كيفية نظر كل منهما الى احتمالات اندلاع حرب، فنرى (روبرت ماكنمارا)، وزير دفاع كينيدي، يزداد حذراً مع تطور الأزمة، لكنه يقول في المؤتمر انه كان يعتقد بان عنصر المخاطرة بإثارة حرب نووية، أبان أزمة الصواريخ الكوبية، كان بنسبة واحد من خمسين (نسبة اثنين بالمائة) وقال (دوغلاس ديلن) وزير الخزانة، ان النسبة كانت صفراً بالمائة تقريباً، فلم يجد في الوضع ما يمكن ان يؤدي الى حرب نووية وبالتالي كان ميالاً الى الضغط على السوفييت والمخاطرة اكثر من ماكنمار، وكان الجنرال ماكسويل تيلر، رئيس هيئة الأركان المشتركة، يعتقد بان خطر اندلاع حرب نووية قليل واخذ على الولايات المتحدة تساهلها مع السوفييت في أزمة الصواريخ الكوبية، وكان من رأيه ان على الولايات المتحدة ان تسلط على السوفييت ضغطاً وتطالب بإزاحة الرئيس الكوبي فيدل كاسترو، وقال: كنت متاكداً من إننا حاصرناهم في زاوية ولم اقلق قط بشان النتيجة[1].

لكن خطر إفلات الزمام لم يكن هيناً على الرئيس كينيدي، الذي كان يتصرف بتعقل شديد، تعقل اشد بكثير مما كان بعض مستشاريه يرغبون فيه. ومغزى القصة ان الردع النووي على ضآلة حجمه، له آثار بعيدة ومن الواضح ان الردع النووي كان له شأن آخر في أزمة الصواريخ الكوبية.

ومع ذلك ما زالت هناك جوانب مبهمة من أزمة الصواريخ تجعل من الصعب إرجاع النتائج كلها الى العامل النووي، فهناك إجماع من الرأي العام الامريكي على ان الولايات المتحدة هي المنتصرة، لكن ثمة مبالغة في تقدير حجم انتصار الولايات المتحدة ودواعي ذلك الآنتصار، هناك ثلاثة تفسيرات ممكنة على الأقل:

---

(١) جيمس بليت، على الحافة: الامريكان و السوفييت يعيدون فحص ازمة الصواريخ الكوبية (نيويورك: دار هيل و وانغ، ١٩٨٠) ص ٨٠.

أحدهما يرى ان الولايات المتحدة تملك أسلحة نووية اكثر من الإتحاد السوفييتي، ولذا رضخ السوفييت، ويميل التفسير الثاني الى إعطاء أنواع مضافة الى مسألة المـردودات والمخـاطر بالنسـبة لكل من الدولتين العظميين وفي هذا الصدد يعتبر كوبا في مرمى سهم من الولايـات المتحـدة بينمـا هي مقامرة من طرف بعيد بالنسـبة للسـوفيت، فالاميركـان لم يكونـوا فقـط في وضـع افضـل مـن السوفييت بالنسبة لكوبا، بل كان بمستطاعهم إدخال عامل ثالث الى سـاحة الصـراع: ذلـك هـو إمكانية استخدام القوات التقليدية ثم ان فرض حصار بحري وامكانية القيام بغزو امريكـي لكوبـا كان لهما دورهما، فالعبء النفسي كان من نصيب السوفييت لان الخسـارة الكبـيرة مـن جانبـهم واستعداد القوات التقليدية الامريكية لغزو كوبا أعطى موقف الردع الامريكي مصداقية اكبر.

واخيراً، صحيـح ان أزمـة الصواريـخ الكوبيـة تعتـبر نصـراً لأمريكـا، أقـامت أنظمـة تسـوية وتنازلات، كان لدى الامريكان ثلاثة خيارات في الأزمة، أحدهما إطلاق النار، أي قصف مواقـع الصواريخ والثاني إجبارها على الخروج بفـرض الحصـار علـى كوبـا لاقنـاع السـوفييت بوجـوب سحب الصواريخ والثالث بعقد صفقة وذلـك بمقايضـة السـوفييت بشـيء يريدونـه مقـابل سـحب الصواريخ من كوبا كأن يسحب الامريكان صواريخهم من تركيا، وقد لزم المشاركون الصمت طويلاً بشأن اوجه صفقة المقايضة، لكن الأدلة اللاحقة أثبتت ان وعداً امريكياً هادئاً بسـحب الصواريـخ العتيقة من تركيا أهم مما كان يعتقد في حينه، نستطيع ان نستنتج ان الردع النووي كان له شأنه في الأزمة وان البعد النووي كان له حيزه الكبير حقاً في تفكير جون كينيدي، من ناحية آخرى لم يكن عدد الإرهاب النووي بنفس الدرجة من الأهمية، فلم تكن نسبة الإرهـاب هـي المهمـة، بـل حقيقة ان أي عدد منها، مهما كان قليلاً، يمكن ان يلحق دماراً واسعاً.

" في عام ١٩٦٢ أصر الرئيس جون كينيدي على ان يقرأ كل عضو في مجلس الأمن القومي كتاب (مدافع أب) لـ(بربارة تاتتشمان)، ويحكي الكتاب كيف تورطت الأمم الأوروبية في الحرب الأولى بغير انتباه، وتبدأ المؤلفة بتعليق لبسمارك يقول فيه ان (بعض حماقة لعينة في البلقان) كفيلة بإشعال فتيل الحرب التالية، وتمضي المؤلفة في سرد سلسلة الخطوات، بعد اغتيال ولي عهد النمسا، الارشيدوق فرانس فرديناند، في ٢٨ حزيران ١٩١٤، على أيدي القوميين الصربيين، خطوة تافهة لا وزن لها بذاتها، أدت الى ابشع صراع عسكري في تاريخ العالم، وفي كل مرة كان قادة الدول، وهم على حافة الحرب، يحاولون التراجع لكن زخم الأحداث كان يجرهم الى أمام، لقد ذكرنا الرئيس كينيدي بمحادثة عام ١٩١٤ بين اثنين من مستشاري ألمانيا حول الأصول التي نشأت الحرب عنها، فقد سال أحدهما: كيف حدثت الحرب؟ واجاب المستشار السابق: ليتنا كنا ندري. تلك هي طريقة كينيدي في التذكير باستمرار بخطورة سوء التقدير"[1].

قضايا أخلاقية:

خفتت حدة الحرب الباردة نسبياً بعد أزمة الصواريخ الكوبية – حيث تعثرت الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي ووقعا ارضاً عند حافة هاوية وإذ تطلعا الى الهاوية واكتشفا عمقها تراجعا عن الحافة.

في عام ١٩٦٢ مد خط هاتفي مباشر بين واشنطن وموسكو ووقعت اتفاقية رقابة على الإرهاب تحد من إجراء التجارب النووية في الجو، واعلن جون كينيدي ان الولايات المتحدة ترغب في زيادة المتاجرة مع الإتحاد السوفييتي وحصل شيء من خفة التوتر، وفي فترة الستينات انشغلت الولايات الامريكية بحرب فيتنام، ولكن ظلت الرقابة على السلاح سارية المفعول.

وعاد الخوف الشديد من قيام حرب نووية بعد غزو السوفييت أفغانستان عام ١٩٧٩، وفي فترة (الحرب الباردة الصغيرة) بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٥، توقفت محادثات الحد من الإرهاب واتسمت لغة الإعلام بالخشونة وزادت الميزانيات العسكرية ومعها عدد الرؤوس النووية، وتحدث الرئيس رونالد ريغان عن خوض حرب نووية، فيما شددت الجماعات الداعية للسلام من ضغوطها لتجميد الإرهاب النووي تمهيداً لإلغائه.

(١) روبرت ماكنمار، التورط في كارثة: عبور القرن الاول من العصر النووي (نيويورك: دار بانثيون، ١٩٨) ص١٤.

في ذلك جو الشديد القلق طرح العديد من الناس سؤالاً أساسيا: هل الردع النووي عمل أخلاقي؟ لقد رأينا في فصول سابقة ان النظريات الحربية –المتعلقة بالحرب هي وحدها التي تقول بان حالات معينة تتطلب التعامل معها بأحكام أخلاقية، فالدفاع عن النفس يعتبر قضية عادلة عادة، لكن الوسائل والنتائج المترتبة التي تخاض حرب بموجبها أنواع شتى، فإذا جئنا الى الوسائل فيجب التمييز بين المدنيين والمقاتلين، أما من حيث النتائج المترتبة فيجب ان يكون هناك شيء من التوازن، بعض علاقة بين النتائج والسبل.

هل تتماشى الحرب النووية مع نظرية الحرب العادلة؟ يمكن من الناحية التكنيكية. قد يستعمل عتاد نووي محدود القوة، كقذائف مدفعية، مثلاً لا تزيد قوتها التدميرية على قوة أحداث الإرهاب التقليدي، تطلق على منظومات الرادار والسفن في البحر ومقرات القيادات العسكرية تحت سطح الأرض، وفي هذه الحالة يمكننا التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين ونحد من الأضرار نسبياً ولكن هل يقف القتال عند هذا الحد أم يتصاعد، الخطر الكبير هو في اشتداد واتساع نطاق الحرب، وهل من شيء يستحق هلاك مائة مليون إنسان او نهاية الحياة على هذا الكوكب؟ ابان الحرب الباردة أجاب البعض على هذا التساؤل: ان نصبح شيوعيين خير من ان نموت.

ولكن قد تكون هذه الطريقة مغلوطة في طرح السؤال، يمكننا بالمقابل ان نسال، أيجوز أصلا ان نجازف ولو قليلا بدخول كارثة هائلة؟ اشتهر عن جون كينيدي قوله، أبان أزمة الصواريخ الكوبية، ان نسبة نجاح الإرهاب التقليدي هي الثلث وان المخاطرة بتصعيد حرب نووية ضئيلة فهل كان يجوز له الدخول بمثل هذه المخاطرة؟ لنرجع الى قاعدة التضاد، لو لم يكن كينيدي راغباً بالمخاطرة في كوبا أكان خروتشوف يعتقد بان الحرب شيء اشد خطورة؟ ماذا سيكون الامر لو ان نجاحاً سوفيتياً أدى فيما بعد الى أزمة نووية او قل الى حرب تقليدية أوسع نطاقاً حول مشكلة برلين او قناة بنما مثلا؟

ربما يكون الإرهاب النووي قد لعب دوراً في الحيلولة دون تحول الحرب الباردة الى حرب فعلية، في الثمانينات افتى الكرادلة الكاثوليك الامريكان ان الردع النووي يمكن ان يبرر على

أساس شرطي باعتباره إجراءاً انتقالياً مقبولاً تمهيداً لإيجاد بديل افضل، ولكن كم طول الفترة الآنتقالية؟ طالما كانت هناك معرفة نووية فان شيئاً من الردع النووي سيبقى، صحيح ان الإرهاب أثمرت درجة من التعقل أثناء الحرب الباردة.

كان لقلق من انتشار الإرهاب النووي دور رئيسي في العديد من الأزمات الدولية خلال تسعينات القرن العشرين، فانتشار الإرهاب النووي مستمر وان وقعت ١٧٠ دولة على معاهدة حظر الآنتشار، فثمة دول مثل العراق وايران وكوريا الجنوبية تحصل او تسعى للحصول على أسلحة نووية، مسألة آخرى تسبب القلق الشديد هي انتشار الإرهاب غير التقليدي كالأسلحة الجرثومية –البايولوجية–والكيماوية، عند ليبيا، على سبيل المثال، تستمر في إنشاء مصانع أسلحة كيماوية رغم ما تعانيه من عقوبات دولية نتيجة ذلك[١]، ان حرب الخليج عام ١٩٩١ ووصول الأزمة بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية الى حدود المواجهة تقريباً عام ١٩٩٤والمعلومات الموثقة عن خروج المواد النووية من الإتحاد السوفييتي السابق الى السوق السوداء الدولية تبين لنا ان هذا الإرهاب ما زال قادرا على خلق التوتر ودفع الدول الى حافة الحرب.

ادين استعمال الإرهاب الكيماوي والجرثومي منذ الحرب العالمية الأولى حين لقي استعمال غاز الخردل احتجاجات صارخة في دول الحلفاء والمحور على حد سواء، أما البعد الواقعي فبسيط: ان أسلحة الدمار الشامل تحمل خطورة تصاعد ضراوة الحرب وامكانية تدمير هائلة، وبوجود هذا الإرهاب تتغير ديناميكية الصراع، فالدول الضعيفة التي تملك أسلحة نووية او غير تقليدية يمكنها ان تهدد الدول القوية، في حين ان الدول القوية المالكة لهذا الإرهاب تكون في مركز افضل من حيث تهديد وردع خصومها، وفي الوقت نفسه يؤدي الخوف من استعمال هذا الإرهاب، في حالة خروج أزمة ما عن السيطرة، الى زيادة التوتر سواء كان بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية او بين الهند وباكستان، ربما تكون الحرب الباردة قد انتهت، لكن عصر الإرهاب النووي وغير التقليدي لم ينته بعد.

مبدأ التدخل والسيادة في الصراعات الإقليمية

انتهت الحرب الباردة بين القطبين الرئيسين، وبأنتهائها ضعف احتمال اندلاع حرب عالمية (بمعناها العام)، لكن الصراعات الإقليمية كثرت وامتدت وازدادت ضغطا على دول غربية (وخاصة الكبرى) وعلى المؤسسات الدولية، مثل الأمم المتحدة ومنظمة حلف شمال الأطلسي للتدخل في هذه الصراعات. ان التدخل مبدأ مربك من حيث مفهوم الكلمة الوصفية والمعيارية في آن واحد. فهو لا يقتصر على وصف ما يحدث، بل يطرح أحكاما تقديرية. وعدم التدخل في الشوؤن الداخلية للدول ذات السيادة معيار أساس في القانون الدولي. وهو مبدأ رئيسي في العلاقات الدولية بما له من تأثير في العدالة والنظام معا. فالنظام يقيد الفوضى. اي الفوضى الدولية – بمعنى غياب الحكومة العليا – ليس (بمعنى غياب النظام واختلاط الحابل بالنابل) وإذا آخذنا المباديء الأساسية بنظر الاعتبار فالسيادة وعدم التدخل اثنان من مباديء النظام (الآنضباط) في نظام فوضوي عالمي حيث تتأثر العدالة نتيجة الفوضى حتى عند عدم التدخل. فدول الأمم مجتمعات بشرية لها حق إقامة حياة عامة ضمن حدود دولتها. وعلى الغرباء (الأطراف الخارجية) ان يحترموا سيادة هذه المجتمعات ووحدة أراضيها ولكن ليست كل الدول خاضعة لهذا النموذج. وغالبا ما ينشأ توتر بين العدالة والنظام عندئذ يتولد شيء من عدم القناعة بالتدخل أو بعدمه.

تعريف التدخل:

تشير كلمة التدخل، بمعناها الواسع، الى الفعل الخارجي الذي يؤثر في الشؤون الداخلية لدولة آخرى ذات سيادة. ويستعمل بعض المحللين هذا المصطلح بتخصيص أشد للدلالة على التدخل عنوة في الشؤون الداخلية لدولة آخرى. والتعريف ذو التخصيص الأِشد مجرد واحد من سلسلة تأثيرات تتراوح بين الإكراه الواطئ – الخفيف – والإكراه العالي – الشديد (انظر الشكل التالي):

غزو عسكري- عمليات عسكرية محدودة- الحصار- مساعدة المعارضة- الاستشارة العسكرية- المساعدة الاقتصادية- الكلام- لاذاعة

الاكراه العالي اكراه الواطىء

ففي الدرجة الدنيا من خط الإكراه قد لا يزيد التدخل عن خطاب يراد به التأثير في السياسة الداخلية لدولة آخرى. مثال على ذلك، حين أهاب الرئيس بوش بالشعب العراقي ان يطيح بصدام حسين عام ١٩٩٠. لقد كان المقصود من خطابه التدخل في السياسة الداخلية للعراق. وفي الثمانينات أنشأت الولايات المتحدة (إذاعة مارتي) لبث رسائل وبرامج معادية لفيدل كاسترو في كوبا.

ان المساعدات الإقتصادية طريقة آخرى للتأثير في الشؤون الداخلية لبلد آخر. فالمساعدة الإقتصادية الأمريكية للسلفادور والمساعدة السوفيتية لكوبا، مثلا، كان المراد بهما التأثير في الشؤون الداخلية لكلتا الدولتين. والرشوة مساعدة إقتصادية غير مشروعة فخلال الحرب الباردة أنفقت وكالات الإستخبارات الأمريكية CIA والسوفيتية KGB أموالا طائلة في انتخابات لبلدان أجنبية. وفي السبعينات أنفقت حكومة كوريا الجنوبية أموالا ضخمة في الدعاية لانتخاب شخصيات سياسية أمريكية تتعاطف مع مصالح كوريا الجنوبية.

فإذا صعدنا قليلا في خط الإكراه وجدنا تقديم المشورة العسكرية. ففي الأيام الأولى من الحرب الفيتنامية جاء التدخل الأمريكي بشكل مساعدة إقتصادية أولا تلتها مساعدات عسكرية. كذلك قدم الإتحاد السوفيتي وكوبا مساعدة عسكرية ومستشارين عسكريين لنيكاراغوا ودول عميلة آخرى ومن أشكال التدخل الآخرى دعم المعارضة، ففي أوائل السبعينات أغدقت الولايات المتحدة

الأموال على معارضي الرئيس التشيلي المنتخب (سلفادور الندي) وانفق الإتحاد السوفيتي الأموال على جماعات السلام في بلدان أوروبا الغربية.

قرب نهاية خط الإكراه نجد العمل العسكري المحدود. ففي الثمانينات قصفت الولايات المتحدة ليبيا تعبيرا عن اتهامها بدعم الارهاب. وساعد الإتحاد السوفيتي أحد طرفي الحرب الأهلية في اليمن الجنوبية. أما في أعلى الخط هناك الغزو العسكري الكلي أو الاحتلال. ومن أمثلة ذلك العمليات العسكرية الأمريكية في جمهورية الدومينيكان عام ١٩٦٥ وفي كرينادا عام ١٩٨٢ وبنما عام ١٩٨٩ والعمل العسكري السوفييتي في المجر عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وأفغانستان عام ١٩٧٩. ولا يقتصر التدخل بالقوة على الدول الكبرى. ففي عام ١٩٧٩ أرسلت تنزانيا قواتها الى أوغندا وغزت فيتنام كمبوديا وكان غزو العراق الكويت في ٢ آب (أغسطس)١٩٩٠ احدث مثال على ذلك.

يشمل التعريف بمعناه الواسع كل درجات السلم أو خط السلوك: من درجة الإكراه الواطيء الى الإكراه العالي. ان درجة الإكراه في التدخل مهمة من حيث أنها تتعلق بمدى حرية الشعب المعتدى عليه على الاختيار وبالتالي مدى استطاعة القوى الخارجية انتهاك استقلاله الذاتي.

السيادة:

كان مبدأ السيادة مبدأ حيويا بالنسبة لعصبة الأمم، حيث احتل مركز الصدارة في مناقشات مسألة شرعية التدخل. فبينما نرى ان السيادة مطلقة بالمعنى القانوني نجد السيطرة الحقيقية للحكومة ضمن حدودها مسألة قابلة للنقاش في أحيان كثيرة.

نادرا ما تمتلك الحكومات سيطرة كاملة على كل ما يحدث داخل أراضيها وذلك لأسباب عدة. أحدها الاعتماد الإقتصادي الدولي المتبادل. فالدول قد تكون ذات سيادة من الناحية القانونية، لكن الممثلين من الخارج يؤثرون في ما يجري على خشبة المسرح.

ان التدخل يقوي الإستقلال الذاتي أحيانا اذ ان بعض الدول الفقيرة لا تملك ، في الواقع، سوى قدر ضئيل من الإستقلال الذاتي لأن إمكاناتها ضئيلة للغاية. وبعض أنواع التدخل يزيد هذه الإمكانات ويقوي استقلالها الحقيقي في المستقبل. فالمساعدة العسكرية أو الإقتصادية قد تساعد

دولة من الدول لتصبح أشد استقلالا بمرور الزمن. وما يبدو فقدانا للإستقلال في وقت من الأوقات قد يعزز الإستقلال في ما بعد، هذه بعض تعقيدات العلاقة بين السيادة والإستقلال الذاتي والتدخل.

الحكم على مبدأ التدخل:

للواقعيين والكوزموبوليتانيين وأخلاقيي الدولة (أنصار أخلاقية الدولة) وجهات نظر مختلفة حول مسألة التدخل، فالواقعيون يعتبرون النظام والسلام القيمتين الرئيستين في السياسة الدولية وميزان القوى المؤسسة الرئيسية. لذا يرى "الواقعيون" ان التدخل يمكن تبريره إذا كان ضرورة لحفظ ميزان القوى وحفظ النظام.

الأمثلة على ذلك، مناطق النفوذ أيام الحرب الباردة (منطقة النفوذ الأمريكي في نصف الكرة الغربي ومنطقة النفوذ السوفيتي في شرقي أوروبا)، في عام ١٩٦٥ تدخلت الولايات المتحدة في الدومينيكان، على أساس عدم السماح بقيام مزيد من الحكومات الشيوعية في نصف الكرة الغربي، وتدخل الإتحاد السوفيتي للإبقاء على الحكومات الشيوعية في شرقي أوروبا. والحقيقة ان السوفيت أعلنوا عن "مبدأ بريجنيف" الذي يعني انهم يملكون حق التدخل للمحافظة على الاشتراكية في مناطق نفوذهم، وكان الواقعيون ميالين الى تبرير مثل هذه التدخلات على أساس أنها تحفظ النظام وتحول دون حصول سوء فهم وسوء تقدير يمكن ان يؤديا الى تصعيد أجواء الحرب وبالأخص الحرب النووية.

و يعتبر الكوزموبوليتانيون العدالة "القيمة الأولى" ومجتمع الأفراد هو المؤسسة الدولية الأولى. وعلى هذا فان التدخل يكون مبررا إذا كان في خدمة العدالة، فالتدخل لمصلحة الخير مسموح به. ولكن ما هو "الخير" وكيف يمكن تحديده؟ خلال الحرب الباردة خرج الكوزموبوليتانيون الأحرار "الليبراليون" باجتهاد نص على ان التدخل أمر مشروع ضد أنظمة يمينية مثل دكتاتورية ماركوس في الفليبين والحكم العنصري في جنوب أفريقيا، في حين يبرر الكوزموبوليتانيون المحافظون التدخل ضد الحكومات اليسارية. في الثمانينات أعلن بعض الأمريكيين (مبدأ ريغان)، أي ان من المصلحة التدخل ضد الحكومة الساندينية في نيكاراكوا وحكومتي موزامبيق وأنكولا الشيوعيتين

بسبب انتهاكهما للحقوق الديمقراطية. وفي التسعينات ونهاية الحرب الباردة دعا الكوزموبوليتانيون الى التدخل الآنساني في الصومال عام ١٩٩٢ لإيقاف انتشار المجاعة وفي هاييتي عام ١٩٩٤ لإعادة الرئيس المنتخب (جان برتران آرستيد) الى الحكم وفي زائير عام ١٩٩٦ لإيقاف انتشار المجاعة وأعمال العنف العرقية التي رافقت تدفق اللاجئين من رواندا المجاورة ، وفق هذا الاستقراء فان ما يجمع الكوزموبوليتانيين، يمينا ويسارا، تبريرهم التدخل إذا كان يخدم العدالة.

أما أنصار أخلاقية الدولة فالقيمة الأساس للسياسة الدولية في نظرهم هي في الإستقلال الذاتي للدولة والشعب والمؤسسة الرئيسية باعتبارها قواعد معينة واخلاقية في القانون الدولي. وأهم هذه القواعد عدم التدخل في أراضي دولة ذات سيادة. وعلى هذا فان الأخلاقيين نادرا ما يبررون التدخل، ويبررون الحرب للدفاع عن وحدة أراضي دولة أو سيادتها ضد العدوان الخارجي. غير ان العالم الواقعي أشد تعقيدا من هذه الصورة أحيانا وكثيرا ما يكون العدوان الخارجي ملتبسا غير واضح المعالم، في حزيران عام ١٩٦٧ عبرت إسرائيل الحدود وهاجمت مصر أولا. وقد رافق ذلك العدوان تبرير مفاده ان اسرائيل ليست المعتدية لأنها لم تفعل سوى التعجيل بضربة استباقية من هجوم مصري وشيك. فمن المعتدي؟ المصريون الذين حشدوا قواتهم على الحدود بما يتضح منه أنهم يستعدون لشن هجوم على إسرائيل أم الإسرائيليون الذين ضربوا قبيل هجوم المصريين؟

استثناءات عن القاعدة:

يناقش مايكل والزر Michael Walzer في كتابه Just and Unjust War (الحرب العادلة وغير العادلة) أربع حالات يمكن ان تبرر الحرب أو التدخل العسكري أخلاقيا في غياب العدوان الصحيح – العلني.

* الاستثناء الأول لقاعدة عدم التدخل الصارمة هو التدخل الاستباقي متمثلا بالهجوم الإسرائيلي عام ١٩٦٧. فإذا كان ثمة تهديد جدي وواضح لسيادة دولة فعلى تلك الدولة ان تبادر الى التحرك قبل فوات الأوان. على ان يكون التهديد وشيكا. غير ان محاججة كهذه لا تبرر التدخل السوفيتي في أفغانستان مثلا. فهناك فرق بين الحروب الاستباقية والوقائية. فالضربة

الاستباقية تحصل حين يكون هناك هجوم معاد وشيك. أما الحرب الوقائية فتحصل حين يرى المسؤولون ان التعجيل بالحرب أفضل من تأجيلها. وقد سيطر هذا النوع من الحرب على تفكير رئاسة الأركان الألمانية عام ١٩١٤. عندما أصاب المسؤولين الألمان الخوف من الآنتظارحتى عام ١٩١٦ حتى تصبح روسيا من القوة بما يجعلها تفشل (خطة شليفن). ان استثناء Michael Walzer الأول لقاعدة عدم التدخل ما كان ليسمح لحرب وقائية بسبب عدم تعرض ألمانيا يومئذ لتهديد آني واضح. وقد رأينا من قبل بفضل أمثلة التضاد، كم كانت هناك من أمور آخرى كفيلة بتغيير الوضع بين عامي ١٩١٤ و١٩١٦.

* الاستثناء الثاني للقاعدة يحصل حين يصبح التدخل لزاما لموازنة تدخل مسبق وترجع هذه القاعدة الى John Stuart Millو الرأي الليبرالي، في القرن التاسع عشر القائل بأن الشعب يملك حق تقرير مصيره ، فإذا أعاق تدخل ما أي شعب عن تقرير مصيره فيمكن تبرير تدخل مقابل لأبطال مفعول التدخل الأول لأنه يعيد للشعب حقه في تقرير مصيره. وقد استعملت الولايات المتحدة هذه الحجة أحيانا لتبرير انخراطها في الحرب الفيتنامية. أما أطروحة Mill التي تسمح بالتدخل في حالات التوازن بالضد وباعتباره تدخلا سابقا فقط، لا كونه مبررا أو غير مبرر. في عام ١٩٧٩ تدخلت الصين في فيتنام بعبورها حدود البلد، لكن الصين عادت فسحبت قواتها في غضون بضعة أسابيع وكانت حجة الصين أنها كانت تتصدى لتدخل فيتنامي في كمبوديا. ان التدخل مسموح به الى حد إبطال تأثير التدخل الأول لا أكثر لأن المبدأ الأساس هو فسح المجال للشعب، أي شعب، لأن يحل مشاكله بنفسه.

* الاستثناء الثالث لقاعدة عدم التدخل هو عندما يكون من الضروري إنقاذ الناس المعرضين لمذبحة. فإذا لم يبادر الى إنقاذ أناس كهؤلاء فلا جدوى من عدم التدخل كعلاقة احترام لاستقلالهم الذاتي وحقوقهم. فقد قامت تنزانيا بغزو أوغندا يوم راح حاكم طاغية يعمل في الناس ذبحا وتقتيلا. وبررت غزوها بأن الغاية منه إنقاذ شعب من الذبح. واستعملت فيتنام ذريعة مماثلة لغزو كمبوديا. ومع ذلك فالمذابح وحملات الإبادة لا تؤدي بالدول أو المجتمع الدولي الى

التدخل بالضرورة. لاحظ تردد الولايات المتحدة في إرسال قوات الى رواندا عام ١٩٩٤ أو البوسنة في عام ١٩٩٢ و١٩٩٥ أو ليبيريا عام ١٩٩٦.

* الاستثناء الرابع مساعدة الحركات الآنفصالية (الاستقلاليين) حين تعلن عن هويتها وقرارها. بمعنى آخر إذا كانت ثمة جماعة من الناس تعلن بصراحة ووضوح أنها تريد ان يكون لها وطنها المستقل وفق الشرعية الدولية التي تساعدها على الآنفصال باعتبار ذلك توجها لمساعدتها على نيل حقوقها وتطوير استقلالها كأمة مستقلة. ولكن متى تستحق الحركة الآنفصالية المساعدة؟ هل يعتبر نجاحها مقياسا لجدارتها؟ ان جانبا من أطروحة Mill يقول ان على الجماعة التي تنشد الاعتراف بها كأمة ان تكون قادرة على السعي لنيل الخلاص والكفاح من أجل حريتها. وهذا الرأي يتماشى، على الأقل، مع مبدأ عدم التدخل، لكنه قاصر كمبدأ أخلاقي لأنه يوحي بأن "القوة تصنع الحق".

تقرير المصير:

مشكلة التدخل لصالح الحركات الآنفصالية هي في تعريف ما هو الشعب؟ من يشارك في صنع الحياة المشتركة؟ هل يعرف الغرباء ان كان الناس وافقوا حقا على صب حقوقهم في حوض مجتمع أو دولة واحدة؟ ان تقرير المصير مبدأ مهم ولكن سؤالا يواجهنا دائما هو من الذي يقرره؟ خذ الصومال، الذي يختلف عن بقية الدول الأفريقية من حيث ان شعبه لا يجمعه أصل عرقي واحد أو لغة واحدة. وكينيا المجاورة التي اوجدتها السلطة الاستعمارية من عشرات المجموعات السكانية والقبائل المختلفة لغة وعادات. ان جزءا من شمالي كينيا يسكنه صوماليون. وتقول الصومال بوجوب الأخذ بمبدأ تقرير المصير والسماح للصوماليين في شمال شرقي كينيا وجنوبي الحبشة بالآنفصال لأنهم كانوا في الأصل أمة صومالية واحدة. ورفضت كينيا والحبشة (أثيوبيا) قائلين ان الصومال ما زالت تحاول ان تبني وطنا وأمة. وكانت النتيجة ظهور عدد من الحروب في شمال شرقي أفريقيا حول المسألة القومية والصومالية.

التصويت لا يحل مثل هذه المشاكل دائما، خذ المسألة الايرلندية مثلا. إذ تم اجراء التصويت ضمن رقعة ايرلندا الشمالية السياسية بتولي البروتستانت الذين يؤلفون ثلثي سكان المنطقة الحكم.

أما إذا اجري ضمن الرقعة الجغرافية للجزيرة كلها فان الكاثوليك، الذين يؤلفون ثلثي مجموع السكان ، هم الذين سيصلون الى الحكم. فمن الذي يقرر وأين يجري الاقتراع؟ وما هي الاسس التي يدلي ابناء المنطقة بأصواتهم بناءاً عليها؟ الصوماليون مثلا أرادوا اجراء الاقتراع في حين ، وأرادت كينيا تأجيله ٤٠ الى ٥٠ سنة حتى تكتمل ملامح الأمة الصومالية.

هل يؤذي الآنفصال أولئك الذين ينفصل عنهم؟ وماذا عن الموارد التي يأخذها الآنفصاليون معهم أو ما يسببونه من إرباك للبلد الذي ينفصلون عنه؟ مثل ذلك ما حصل بعد تفكيك الامبراطورية النمساوية عام ١٩١٨. فقد أدمج إقليم السوديت بدولة تشيكوسلوفاكيا بالرغم من ان سكانه يتكلمون الألمانية وبعد اتفاقية ميونخ عام ١٩٣٨ انفصل السوديتيون عن تشيكوسلوفاكيا وانضموا الى ألمانيا، لكن هذا كان يعني وقوع المنطقة الجبلية الحدودية في أيدي الألمان مما يشكل خسارة جسيمة للدفاعات التشيكية. فهل من الصواب إعطاء السوديت حق تقرير المصير وان كان ذلك يعني تجريد تشيكوسلوفاكيا من وسائل دفاعاتها العسكرية؟ لنأخذ مثلا من تاريخ قريب، حين أيدت نايجيريا الشرقية رغبتها في الآنفصال وأنشاء دولة بيافرا في الستينات عارض النايجيريون الآخر ون المحاولة لأن بيافرا تضم أغلب آبار النفط النايجيرية قائلين ان النفط ملك للشعب كله لا للمنطقة الشرقية وحدها.

بعد عام ١٩٨٩ اشتدت حدة المطالبة بتقرير المصير في أوروبا الشرقية والإتحاد السوفيتي سابقا. وقسمت تشيكوسلوفاكيا ثانية بحسب الآنتماءات العرقية، ولكن بصورة سلمية هذه المرة. فقامت الجمهورية التشيكية في الغرب والسلوفاكية في الشرق. وكان الإتحاد السوفيتي السابق يضم جماعات عرقية مختلفة طالبت بتقرير المصير، تماما كما فعل كثير منها عامي ١٩١٧ و١٩٢٠. فطالب سكان القفقاس وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا واوزبكستان والشيشان بإقامة دولهم المستقلة على أساس تقرير المصير وهي من ابسط حقوقهم.

و في دولة يوغسلافيا السابقة انفصلت جماعات عرقية ودينية مختلفة منادية بحقها في تقرير المصير. واستطاع السلوفينيون والصرب والكروات إقامة جمهوريات مستقلة، لكن مسلمي البوسنة والهرسك كانوا أقل نجاحا. فبينما كانت صربيا وكرواتيا تضم أقليات عرقية آخرى، نجد

البوسنة أشد اختلاطا عرقيا من الآخر يين وتضم إقليمي صربية وكرواتية الكبيرين. وبعد عام ١٩٩٢ تعرض المسلمون البوسنيون لحملة تصفية عرقية على أيدي القوات الصربية والكرواتية. كانت الحرب في البوسنة مدمرة للسكان المدنيين وقد شكلت محاكم جرائم حرب في لاهاي لمحاكمة المسؤولين عن المذابح. ومع ذلك ظلت المؤسسات الدولية – الأمم المتحدة ومنظمة الحلف الأطلسي والإتحاد الأوروبي – منقسمة على نفسها حول كيفية الرد، اغلب الوقت. ان أحد العوامل التي زادت من صعوبة مسألة الحرب البوسنية في نظر المجتمع الدولي هو صعوبة إيجاد الحد الفاصل بين كون الصراع البوسني حرباً أهلية بين الكروات والصرب من جهة والمسلمين من جهة آخرى وكونه تدخلا من جانب صربيا. فان لم يكن عدوانا فالمجال الوحيد للتدخل هو منع حصول مذابح كذلك كانت الحال مع رواندا فقد وقف المجتمع الدولي كله وقفة إدانة لكنه عجز عن الاتفاق على عمل مشترك حتى وقت متآخر من اندلاع الصراع عام ١٩٩٥.

دوافع ووسائل ونتائج مترتبة (تبعات):

إذا كان تنافس المواقف مستحيلا فما هي المباديء الآخرى التي يمكن استعمالها ياترى للحكم في التدخل؟ هناك ثلاثة أبعاد للحكم تعود الى تقليد الحكم بشرعية حرب أو عدمها هي:

الدوافع والوسائل والنتائج المترتبة عليها (التبعات). والعناصر الثلاثة مهمة لأن الحكم على التدخل من زاوية واحدة قد يحمل جوابا مغلوطا. فالحكم على تدخل من خلال النتائج المترتبة وحدها ، مثلا يماثل الرأي القائل"ان القوة تصنع الحق". وغني عن القول ان عوامل آخرى الى جانب النتائج المترتبة – التبعات– يجب أخذها بنظر الاعتبار.

كذلك لا تكفي نوايا فعل الخير وحدها لتبرير التدخل. مثلا ، يعتبر الكاتب Norman Podhoretz الولايات المتحدة محقة بتدخلها في فييتنام لأن الأمريكان كانوا يحاولون إنقاذ كوريا الجنوبية من الحكم الاستبدادي المطلق. فإذا كان طرحه محقا بوصفه العمل العسكري الأمريكي في فييتنام بأنه (وقح لكنه أخلاقي) فهل تجعله النوايا الطيبة عملا صائبا – مشروعا؟ علينا ان لا نقف عند الدوافع حسب، بل ان نأخذ النتائج المترتبة أيضاً بعين الاعتبار.

في الحرب الفيتنامية لم يكن كافيا ان تحاول الولايات المتحدة إنقاذ فييتنام الجنوبية من الأهوال التي تحملها إليها فييتنام الشمالية. فالوسائل المستعملة في معالجة قضية هي مسألة بحد ذاتها وعدالة تلك القضية مسألة آخرى. ومن الأسئلة التي تطرح في هذا الباب: هل كانت هناك بدائل؟ هل كان التدخل الحل الأخير؟ هل بذلت جهود لحماية الناس الأبرياء؟ هل كانت هناك عدالة – أي هل كان العقاب يوازي الجريمة، كما يقال، أم فيه مبالغة؟

هل اتخذت إجراءات لتأمين حكم محايد؟ الى أي مدى كان هناك اهتمام بالإجراءات الدولية متعددة الأطراف التي تحد من نزوح الآنسان الى استغلال الأمور لخدمة أغراضه؟ وماذا عن النتائج المترتبة – التبعات؟ ماذا عن فرص النجاح؟ ماذا عن المخاطر غير المحسوبة بسبب عدم دراسة وضع محايد بصورة كافية؟ أو بسبب صعوبة التفريق بين المدنيين ومقاتلي حرب العصابات؟ فمن الضروري، كما هو واضح، التشديد على وجوب التأني عند النظر الى أوضاع على قدر عظيم من التعقيد والتشابك. وبالتالي فان إصدار حكم يستلزم دراسة الدوافع والوسائل والنتائج المترتبة.

لاحظ كيف قادت سياسة الاحتواء الى التدخل في فييتنام. لاحظنا من قبل، في الأدوار الأولى من الحرب الباردة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ان المسألة المطروحة هي ان كان يتوجب على الولايات المتحدة ان تحل محل بريطانيا في شرقي المتوسط لتحمي تركيا واليونان من براثن الاقتناص السوفيتية. وكان الجدال داخل الولايات المتحدة منصبا على كيفية شرح الموضوع للشعب الأمريكي. كان وزير الخارجية (جورج مارشال) ومسؤولون آخر ون حذرين تماما، فيما دعا نائب وزير الخارجية دين آتشيسون DeanAcheson والسيناتور ArthurVandenburg الى اعتماد خطاب أخلاقي لجعل القضية قضية إنسانية. ولهذا بدأ الرئيس الأمريكي ترومان Truman يتحدث عن حماية الناس الأحرار في كل مكان.

لقد أصيب GeorgeKennan بخيبة أمل إزاء اشتداد أدلجة سياسة الاحتواء، وهو الذي حذر من خطط ستالين العدوانية. فهو يرى ان الولايات المتحدة كانت تحاول احتواء القوة السوفيتية وبالتالي فان أي شيء يؤدي الى موازنة هذه القوة بلا تدخل مباشر للقوات الأمريكية هو

شيء جيد. لكن الأطراف التي تميل الى الأخذ بالنظرة الأيديولوجية نادت باحتواء الشيوعية مباشرة. وبمرور الزمن تراجعت لاحتواء القوة السوفيتية أمام نظرة أوسع للاحتواء على أنه وقاية للعالم من الشيوعية. هذه النظرة جعلت القادة الأمريكان يقللون من قيمة الاختلافات الوطنية والقومية بين الدول الشيوعية. وبدأت الولايات المتحدة تشعر بوجوب احتواء القوتين الصينية والسوفيتية وانتشار الأيديولوجيا الشيوعية. ومع انتقال مبدأ الاحتواء من شرقي المتوسط عام ١٩٤٧ الى جنوب شرقي آسيا في الخمسينات تحول الى تدخل بالغ الغطرسة والطموح سيء المصير.

نخلص من هذا الى ان معيار عدم التدخل يظل مهما وان انتهك مبدأ عدم التدخل المطلق البسيط عمليا مرات كثيرة. أما استثناءات عدم التدخل فيجب الحكم عليها منفردة من خلال معاينة دوافعها ووسائلها وما يترتب عليها من نتائج وتبعات.

القانون والمنظمة الدوليان:

السيادة الوطنية وعدم التدخل مبدآن مقدسان في نظر القانون والمنظمة الدوليين. ان بعض الناس يخطيء في فهم القانون والمنظمات الدولية لأنهم يستعينون بأمثلة محلية. لكن المنظمة الدولية ليست كالحكومة الوطنية والقانون الدولي ليس كالقانون المحلي. فالمنظمة ليست حكومة عالمية لسببين: أولهما ان سيادة الدول الأعضاء مصانة في مواثيق أغلب المنظمات الدولية. فتقول المادة (٢–٧) من ميثاق الأمم المتحدة: "لا شيء في الميثاق يخول الأمم المتحدة في الشؤون التي تقع ضمن حدود سلطاتها القضائية – أي الدولة – الإقليمية". أي ان المنظمة ليست بديلا عن الدول ذات السيادة.

السبب الآخر لكون المنظمة الدولية ليست حكومة عالمية هو ضعفها. فثمة سلطة قضائية دولية بهيئة "محكمة العدل الدولية" تضم ١٥ قاضيا تنتخبهم الأمم المتحدة للعمل في المحكمة لمدة تسع سنوات. لكن محكمة العدل الدولية ليست محكمة عليا عالمية. فقد ترفض الدول الاعتراف بسلطتها القضائية وقد ترفض دولة الأحكام التي تصدرها المحكمة من أحكام وان

اعترفت بسلطتها القضائية. ففي الثمانينات مثلا رفضت إدارة الرئيس ريغان قرار المحكمة بعدم شرعية قيام الولايات المتحدة بزرع الألغام في موانئ نيكاراكوا.

فإذا تخيلنا الجمعية العامة للأمم المتحدة معادلة لمجلس الشيوخ نجد أنفسنا أمام نوع غريب جدا من المجالس التشريعية. فهي تقوم على مبدأ "صوت واحد لكل دولة"، لكن هذا المبدأ لا يعكس الديمقراطية ولا علاقات القوى في العالم. فالديمقراطية تقوم على مبدأ "لكل فرد صوت واحد". في حين نجد في الجمعية العامة للأمم المتحدة جزر مالديف في جنوبي المحيط الهندي ، التي يبلغ تعداد سكانها مائة ألف نسمة لها صوت واحد والصين التي يزيد سكانها على المليار لها صوت واحد أيضاً. وهذا يعني ان الشخص المالديفي يتمتع بقوة تصويت تعادل قوة مائة ألف صيني. وهذا الأمر لا يتفق مع معايير التشريع الديمقراطي ولا يعكس القوة الحقيقية بصورة جيدة لأن جزر المالديف تملك صوتا واحدا في الجمعية العامة أسوة بالولايات المتحدة أو الهند أو الصين. إذن فثمة مأخذ على الجمعية العامة يجعل الدول غير ميالة للسماح لها بإصدار تشريعات ملزمة. فقرارات الأمم المتحدة قرارات فقط لا قوانين.

و أخيرا قد نتصور ان الأمين العام للأمم المتحدة هو الرئيس الجديد للعالم. لكن هذا تضليل آخر. فالأمين العام مدير تنفيذي ضعيف وإذا كان يتمتع بسلطة فهي اقرب الى سلطة البابا منه الى رئيس دولة. ان محاولة فهم المنظمات الدولية عن طريق مقارنتها بالحكومة، أية حكومة، تؤدي، لا محالة، الى الحصول على إجابات مغلوطة.

كذلك لا يشبه القانون الدولي القانون المحلي. فالقانون المحلي وليد مشرعين وأعراف قانونية تدعى "القانون العام" أحيانا. ويضم القانون المحلي مواد وأحكاماً يراد تنفيذها والعمل بموجبها من قبل الأفراد (يمكن الذهاب الى المحكمة ورفع قضية) وتصويبها بالتعديلات القانونية. والقانون الدولي العام شبيه بهذا المعنى، من حيث انه يضم المعاهدات ،التي هي اتفاقيات بين الدول، والأعراف الدولية، التي هي ممارسات الدول المقبولة بوجه عام. لكنه يختلف بدرجة كبيرة من حيث قوة التطبيق وحدوده القضائية. فإذا انتقلنا الى قوة التطبيق وجدنا ان لا جهاز تنفيذي هناك يجعل الدول تقبل قرار المحكمة. ان السياسة الدولية نظام يخدم نفسه بنفسه.

كانت الدول الكبرى تتولى تطبيق القانون الدولي، بالصيغ الكلاسيكية. ففي قانون البحار، مثلا، نشأ عرف يقول ان الدولة، أية دولة، يمكنها ان تفرض لنفسها حقوق مياه إقليمية لمسافة ثلاثة أميال. ويوم مدت دول كالبرتغال وأورغواي حدود مياهها الإقليمية، حماية لثروتها السمكية، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أرسلت بريطانيا – أقوى دولة بحرية في العالم يومذاك، سفنها الحربية الى بعد ثلاثة أميال من سواحل الدولتين. وهكذا فرضت الدولة العظمى قانونا عرفيا. قد يسأل المرء: من يطبق القانون على بريطانيا إذا خرقت القانون؟ الجواب ان تطبيق القانون في ظل أنظمة "اخدم نفسك بنفسك" طريق ذو ممر واحد.

والمقاضاة في القانون الدولي تجري بين الدول لا الأفراد. فالدول وحدها، لا مليارات البشر على سطح الأرض، تستطيع عرض القضايا على المحكمة الدولية. والدول لا تعرض القضايا عادة إلا إذا أرادت سحبها أو وجدت الفرصة سانحة لكسبها. وعلى هذا المنوال فليس أمام المحكمة سوى عدد قليل من القضايا. ثم هناك مشاكل تفسير القواعد العرفية واختيارها حتى في حالة الاتفاق على المبدأ. خذ مبدأ مصادرة الملكية أو التأميم. فمن المتعارف عليه والمقبول ان دولة ما تستطيع تأميم شركة أجنبية تعمل في أراضيها (كما فعلت مصر العربية عند تأميم قناة السويس والعراق عند تأميم نفطه عام ١٩٧٢) لكنها ملزمة بتعويض الشركة بما تستحقه. ولكن من الذي يقرر ان كان التعويض عادلا ام لا؟ فالعديد من الدول المتخلفة يعتبر التعويض الواطيء كافيا في حين تطالب الدول الغنية بتعويض مرتفع عادة.

وأخيرا فان قدرا كبيرا من اللبس والإبهام يحيط بمعنى القرارات التي تصدرها الجمعية العامة. فهي ليست تشريعات ملزمة. والموضع الوحيد، من ميثاق الأمم المتحدة، الذي يلزم الدولة بقبول قرار هو الفصل السابع الذي يتناول تهديد وانتهاك السلام وأعمال العدوان.

فإذا وجد مجلس الأمن – لا الجمعية العامة – ان هناك عملا عدوانيا أو تهديدا للسلام يستدعي فرض عقوبات فعلى الدول الأعضاء ان تطبق العقوبات. وهذا ما حدث عام ١٩٩٠ يوم غزا العراق الكويت.

الطريقة الأخرى التي يصاغ بها أحيانا قانون جديد تتم من خلال مؤتمرات كبيرة حيث تجري مفاوضات لصياغة معاهدة توقعها الحكومات المشاركة. وغالبا ما تكون هذه المؤتمرات واسعة وغير متماسكة. مثال على ذلك ان مؤتمر قانون البحار، الذي عقد في السبعينات، شاركت فيه اكثر من مائة دولة حاولت صياغة مباديء لمياه إقليمية تمتد (١٢) ميلا، تحمي الثروات السمكية للدول المشاركة وتمتد الى مسافة (٢٠٠) ميل وتعتبر احتياطي المنغنيز في أعماق البحار ملكا للبشرية جمعاء. المشكلة ان بعض الدول وافق على أجزاء فقط من النص، تاركا النتائج غير واضحة في القانون الدولي.

ان القانون الدولي يعكس، من حيث الأساس، طبيعة السياسة الدولية غير المتماسكة. فالإحساس الضعيف بالمجتمع يعني قلة الاستعداد للطاعة أو كبح الذات من باب الشعور بالالتزام أو قبول المرجعية.

فغياب الهيئة التنفيذية المشتركة التي تحتكر حق استعمال القوة يعني ان الدول ذات السيادة تعيش في عالم "أخدم نفسك بنفسك" وعالم استعمال القوة من أجل البقاء. وغني عن القول ان القانون يتراجع الى المركز الثاني عادة حين تبرز الأمور المتعلقة بالبقاء.

و مع ذلك فالقانون الدولي والأمم المتحدة يشكلان جانبا مهما من الواقع السياسي لأنهما يؤثران في طريقة تصرف الدول. والدول تهتم بالقانون الدولي لسببين: الاستشراف والشرعية.

الدول تشتبك مع بعضها البعض في صراع أبد الدهر. فالمعاملات الدولية الكثيرة المتشعبة، العام منها والخاص، تشمل التجارة والسياحة والبعثات الدبلوماسية والاتصالات بين الناس عبر الحدود الوطنية. ومع اتساع نطاق الاعتماد المتبادل يتسع نطاق هذه الاتصالات ومعها تزداد احتمالات الاحتكاك. والقانون الدولي يتيح للحكومات تجنب الصدام على مستوى عال حين تحصل مثل هذه الاحتكاكات. فإذا اعتقل سائح بريطاني في تايلند لتهريبه المخدرات، مثلا، أو اصطدمت سفينة فرنسية بآخرى نرويجية في بحر الشمال أو أدعت شركة يابانية ان شركة هندية تقلد منتجاتها فقد لا تميل حكومات البلدان المعنية الى إفساد علاقاتها بسبب هذه الاحتكاكات الخاصة. ان معالجة مسائل كهذه وفق القانون الدولي والمباديء المتفق عليها يخرج بالمسائل عن

الصبغة السياسية ويجعلها قابلة للاستشراف أو "الأخذ والرد". فالأخذ والرد ضروريان لتنشيط المعاملات ومعالجة الخلافات الناشكة عنها بالطرق المناسبة.

الشرعية هي السبب الثاني لاهتمام الحكومات بالقانون الدولي. فالسياسة ليست مجرد نضال من أجل القوة المادية، بل سباق من أجل الشرعية أيضاً. وليست القوة والشرعية نقيضين، بل متممان لبعضهما. والبشر ليسوا كلهم اخلاقيين مائة بالمائة. ومن الحقائق السياسية ان الأيمان بالصواب والخطأ يساعد على دفع الناس للعمل. ولذا فان الشرعية مصدر قوة. فإذا اعتبرت تصرفات دولة ما غير مشروعة صارت تكاليف سياستها باهظة. ولذا تلجأ الدول لسياساتها أو وصم سياسات غيرها بعدم الشرعية. وهذا ما يرسم في الغالب شكل تكتيكاتها وما يتمخض عنها من نتائج.

قناة السويس:

تقدم لنا أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ مثالا جيدا. شقت قناة السويس بأيدي بريطانية وفرنسية في القرن التاسع عشر. وكانت مهمة بالنسبة لطريق بريطانيا الى الهند. ففي عام ١٩٥٦ كان ما يقارب ربع استيرادات بريطانيا يأتي عبر قناة السويس. وفي تموز من ذلك العام أمم الرئيس المصري جمال عبد الناصر القناة. ورأى رئيس الوزراء البريطاني، السير آنطوني آيدن، في هذه الخطوة تهديدا كبيرا لبريطانيا، معتبرا عبد الناصر هتلر جديدا. وقارن الأمر بالوضع في الثلأثينا ت وفشل بريطانيا باتخاذ موقف حازم من دخول هتلر أرض الراين. وخشيت بريطانيا ان يؤدي اجتذاب عبد الناصر التيار القومي العربي الى زعزعة مركزها في الشرق الأوسط وقلقت لحقيقة ان عبد الناصر قبل التسلح بأسلحة سوفيتية وكان ذلك في ذروة اشتداد الحرب الباردة.

في آب وأوائل أيلول (سبتمبر) ١٩٥٦ اقترحت بريطانيا والولايات المتحدة إنشاء جمعية المستفيدين من قناة السويس، قائلتين ان مصر تستطيع تأميم القناة شريطة ان تبقى السيطرة عليها بأيدي أولئك الذين يستعملونها للملاحة. فرفض عبد الناصر الحل الوسط. يومها كانت بريطانيا قد أعدت خطة سرية مع فرنسا وإسرائيل،التي كانت تعاني عمليات الفدائيين عبر الحدود بتحريض من عبد الناصر، تقضي بقيام إسرائيل بغزو مصر وعندئذ تتدخل بريطانيا وفرنسا بدعوى

تعرض القناة للتهديد. وهكذا عبرت إسرائيل صحراء سيناء المصرية بدعوى الدفاع عن النفس! مستندة بذلك على المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة التي تجيز استعمال القوة في حالة الدفاع عن النفس. وبينما كانت إسرائيل تقطع صحراء سيناء باتجاه قناة السويس أعلنت بريطانيا وفرنسا عن عزمهما على التدخل للحيلولة دون إلحاق أضرار بالقناة. وبحث مجلس الأمن الدولي الأزمة فرفض ذرائع العدوان ودعا الى وقف إطلاق النار فاستعملت بريطانيا وفرنسا قرار النقض (الفيتو) لمنع وقف إطلاق النار. فقد أرادتا استمرار التدخل كي تستطيعا التخلص من عبد الناصر.

و طرح داغ همر شولد DagHammarskjold، أمين عام الأمم المتحدة، بالتعاون مع وزير خارجية كندا آنذاك ليستر بيرسن Pearson Lester، خطة تقوم على انزال قوة حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة بين القوات المصرية والإسرائيلية فلا تعود لدى بريطانيا وفرنسا حجة للتدخل. وصدر عن الجمعية العامة، حيث لم يستخدم قرار الفيتو، قرار يخول نشر قوة تابعة للأمم المتحدة في سيناء ولم تدعم الولايات المتحدة حلفاءها الأوروبيين خوفا من ان يؤدي التدخل الى إثارة كراهية القوميين العرب وزيادة فرص التغلغل السوفيتي في الشرق الأوسط. بل ان الولايات المتحدة دعمت (خطة همر شولد – بيرسن). وعمدت الى ممارسة المزيد من الضغط على بريطانيا برفضها السماح لصندوق النقد الدولي بتقديم قرض إسنادها وكان الباون الإسترليني، يومئذ، يتعرض لضغط شديد. فاستسلم البريطانيون والفرنسيون للأمر ووافقوا على وقف إطلاق النار. وكان السوفييت مشغولين بالتدخل في المجر التي كانت تحاول الحصول على حريتها في تلك الآونة.

نص رسالة رئيس الوزراء البريطاني أنطوني آيدن الى الرئيس الأمريكي آيزنهاور

في الثلاثينات ثبت هتلر مركزه عبر سلسلة مدروسة من التحركات. بدأت باحتلال أرض الراين تلتها أعمال عدوانية متتابعة ضد النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والغرب بصورة عامة. وتحمل أغلب سكان أوروبا الغربية أعماله وأخذلق لها الأعذار... ونحن مقتنعون بأن الاستيلاء على قناة السويس فاتحة حملة مرسومة صممها عبد الناصر لإقصاء النفوذ والمصالح الغربية من البلدان العربية. وهو يعتقد ، ان هو أفلت من العقاب الآن واستطاع تحدي ثماني عشرة دولة بنجاح، بأن منزلته في العالم العربي ستكون من العظمة بحيث تجعله قادرا على شن ثورات للضباط الشباب في السعودية والأردن وسوريا والعراق (نعلم انه يعد الآن لثورة في العراق، البلد الأشد استقرارا وتقدما). وهذه الحكومات الجديدة ستكون توابع تدور في فلك مصر ان لم يكن في فلك الروس. سيتوجب عليها ان تضع مواردها النفطية مجتمعة تحت سيطرة دولة عربية متحدة كبرى بقيادة مصر وتابعة للنفوذ الروسي ويوم يتحقق شيء كهذا يستطيع عبد الناصر حرمان أوروبا الغربية من النفط ونكون نحن هنا تحت رحمته

رئيس الوزراء البريطاني – آيدن

اضطر البريطانيون والفرنسيون الى القبول بوقف إطلاق النار بسبب الضغط الأمريكي من جهة وفشل دعاواهم من جهة آخرى. فقد جاءت طريقة آخرى للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية وحماية القناة من الاضرار. وفي ١٥ تشرين الثاني وضعت الدفعة الأولى من قوات الأمم المتحدة بين القوات المتحاربة في سيناء. ثم باشرت المنظمة الدولية في الشهر التالي بتطهير القناة من السفن التي أغرقت فيها. لقد كان لاستعمال القانون الدولي وانتهاكه ودخول المنظمات الدولية دور جوهري في سياسات أزمة القناة.

قد لا يستطيع القانون الدولي كبح جماح الدول في صراعات المصالح الكبيرة، لكنه غالبا ما ينفع في رسم مسار السياسة. فالقانون جزء من صراع القوة. قد يقول الشكوكيون ان هذه مجرد العاب يلعبها المحامون الكبار، لكن حقيقة انه حين تجد الحكومات من المهم طرح حجج قانونية أو أخذ قرارات المنظمات الدولية بنظر الاعتبار فذلك يعني ان القرارات ليست عديمة القيمة تماما. وهذا ما تنطبق عليه الحكمة القائلة "إذا ادعت الرذيلة الفضيلة فأقل ما يعنيه ذلك ان للفضيلة ثمنا". وبعبارة أبسط نقول ان الحكومات قد تقع في شباك ذرائعها القانونية نفسها.

مثل آخر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، هذا القرار الذي صدر في نهاية حرب عام ١٩٦٧، دعا للعودة الى حدود ما قبل الحرب. وكان على مر السنين الماضية ينادي بعدم شرعية احتلال إسرائيل للأراضي التي استولت عليها خلال الحرب. وكان موقف إسرائيل في الأمم المتحدة موقف الدفاع فقط. صحيح ان العرب خسروا الحرب لكنهم كانوا في المركز الذي يتيح لهم الضغط على إسرائيل. ويوم حاول الإئتلاف العربي طرد إسرائيل من الأمم المتحدة عام ١٩٧٦ قامت الولايات المتحدة بجهود سياسية كبيرة للغاية لمنع طرد إسرائيل. وهذا دليل آخر على ان رموز الشرعية في المنظمات الدولية جزء من صراع القوة.

حين يكون البقاء مهددا، تستعمل الدولة أشد ما لديها من أشكال القوة تأثيرا وهي القوة العسكرية وهذا يفسر أسباب النجاح المحدود الذي تحققه جهود القانون والمنظمة الدوليين في معالجة مسألة استعمال القوة. فمعالجة مسائل كتهريب المخدرات أوتصادم السفن في عرض البحر أو تقليد علامات صناعية وتجارية شيء وتعريض سلامة بلد للخطر من وراء الالتزام بالقانون الدولي

شيء آخر تلك كانت مشكلة الأمن الجماعي في الثلاثينات لكن صيغة آخرى محورة عن الأمن الجماعي جاء بها ميثاق الأمم المتحدة.

حفظ السلام والأمن الجماعي في ظل الأمم المتحدة:

ميزان القوى الكلاسيكي لم يعتبر الحرب غير قانونية. فكان استعمال القوة مقبولا وغالبا ما أدى الى تأمين استقرار النظام. وقد شهد القرن التاسع عشر، مع مجيء التغيرات التكنولوجية التي جعلت الحرب أشد تدميرا واشتدادا الدعوة للمباديء الديمقراطية والحركات الداعية للسلام، حصول محاولات عدة لتنظيم الدول في موقف مناهض للحرب. فعقدت ست وعشرون دولة مؤتمر سلام في لاهاي عام ١٨٩٩. وعام ١٩٠٧ عقد مؤتمر آخر في لاهاي بمشاركة ٤٤ دولة. وكانت معالجة مسألة الحرب والسلام في كلا المؤتمرين ذات طبيعة قانونية. وقد حاول المؤتمرون حث الدول على توقيع معاهدات تعتمد التحكيم لكي يجري حل الخلافات بالتحكيم لا باستعمال القوة. كما حاولوا تقنين قواعد للحرب تعتمد في حالة فشل التحكيم.

لقد رأينا من قبل أن إنسانية عصبة الأمم، بعد الحرب العالمية الأولى، كان محاولة لخلق إئتلاف دولي يتولى ردع المعتدين ومعاقبتهم. فالحرب العالمية الأولى كانت، في نظر (وودرو ولسون) ومن يفكر بطريقته، حربا أملتها الصدفة وغير لازمة سببها توازن القوى وان حروبا كهذه يمكن تجنبها بتحالف جميع الدول من اجل أمن جماعي. وإذا كانت عصبة الأمم قد صممت لمنع وقوع الحرب العالمية بعد الواقعة، فان الأمم المتحدة كانت قد صممت بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥ للحيلولة دون حدوث الحرب العالمية الثانية. فقد اجتمعت تسع وأربعون دولة بمدينة سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ لتوقيع ميثاق تضمن تجديدات لإصلاح عيوب العصبة. فحرم التهديد أو استعمال القوة في حالة الدفاع عن النفس أو تهديد الأمن الجماعي. فأصبح استعمال القوة (غير الهجومية) غير مشروع بالنسبة لأية دولة وقعت على الميثاق بعكس ما كان عليه نظام توازن القوى في القرن التاسع عشر. فأي استعمال للقوة يجب ان ينطلق من الدفاع عن النفس ، الفردي أو الجماعي أو الأمن الجماعي.

و أنشأ مؤسسو الأمم المتحدة مجلس أمن أيضاً مؤلفا من خمسة أعضاء دائميين وآخر ين يتغيرون تباعا. ويمكن تشبيه مجلس الأمن بمبدأ توازن قوى القرن التاسع عشر ضمن إطار الأمن الجماعي للأمم المتحدة. ويستطيع مجلس الأمن إصدار قرارات ملزمة بموجب الفصل السابع من الميثاق. فإذا لم يوافق الشرط الخمسة الكبار (أعضاء مجلس الأمن الدائميين) فمن حق كل واحد منهم ان يستعمل حق النقض (الفيتو)، الذي يشبه مفصل القطع الكهربائي في نظام إنارة. فالفيتو الذي يطفيء الآنوار أفضل من احتراق البيت ودماره بشكل حرب ضد دولة عظمى.

لم ينفع نظام الأمن الجماعي أثناء الحرب الباردة. فصراع الحرب الباردة الأيديولوجي لم يترك مجالا للاتفاق على تحديد ماهية الاستعمال المشروع للقوة وقامت مشاكل كبيرة بشأن تعريف العدوان. كيف يزن المرء أعمال التسلل السرية مقابل قوات تخترق الحدود أولا. لقد رأينا ان إسرائيل كانت تعاني في عام ١٩٦٧ من هجمات سرية يقوم بها الفدائيون المصريون ومع ذلك كانت القوات التقليدية الإسرائيلية هي البادئة بعبور الحدود. هنا تختلف النظرة الى من يعتبر الباديء بالعدوان تبعا للجهة التي ينحاز إليها المرء في الحرب الباردة. لقد ظلت لجان الأمم المتحدة، طوال عشرين سنة من عمر الحرب الباردة، تحاول التوصل الى تحديد لمعنى العدوان، لتخرج في نهاية الأمر بقاعدة لا تغني ولا تسمن من جوع كما يقول المثل : أعدت قائمة بأعمال العدوان ألحقت بها شرطا ينص على ان المجلس يمكن ان يقرر ان كانت أفعال آخرى تشكل عدوانا. إذن فالعدوان لا يعتبر عدوانا، بنظر الأمم المتحدة، إلا إذا قرر مجلس الأمن ذلك. فكل شيء يعتمد على قناعة مجلس الأمن. وما أندر ما حصلت هذه القناعة أثناء الحرب الباردة.

ان حالة الجمود التي طغت على مبدأ الأمن الجماعي أدت الى ظهور مبدأ الدبلوماسية الاحترازية. فبدلا من تحديد الطرف المعتدي ومعاقبته – وهو المبدأ الأساس للأمن الجماعي – صارت الأمم المتحدة تجمع قوات مستقلة من هنا وهناك وتغرسها بين الأطراف المتحاربة. وقد استخدم النموذج، الذي وضعه همرشولد وليستر بيرسن عام ١٩٥٦، مرات كثيرة في ما بعد. ولئن حالت الحرب الباردة دون تطبيق الأمم المتحدة مبدأ الأمن الجماعي المعدل فان ذلك لم يحل دون تجديد طرق استخدام القوات الدولية في الفصل بين الأطراف المتحاربة. فمبدأ الأمن الجماعي ينص

على انه إذا تجاوزت دولة الحدود تتحد كل الدول ضدها وترجعها الى ما كانت عليه. أما في الدبلوماسية الاحترازية إذا تخطت دولة الحدود تدخلت الأمم المتحدة للفصل بين الطرفين المتخاصمين دون ان تحدد من المعتدي ومن المعتدى عليه. وقد حرصت الأمم المتحدة، أبان الحرب الباردة، على تشكيل قوات حفظ السلام التابعة لها من الدول الصغيرة دائما، لا من الإتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة بغية إبعاد الدول الكبرى عن الآنخراط في صراع مباشر. لقد كانت دبلوماسية الاحتراز وقوات حفظ السلام تجديدا مهما ما يزال يقوم بدور كبير، لكنه ليس ذا علاقة بالأمن الجماعي.

كان غزو العراق للكويت في ٢ آب (أغسطس) عام ١٩٩٠ أول أزمة بعد الحرب الباردة. وقد أمكن للأمم المتحدة تطبيق مبدأ الأمن الجماعي لأول مرة منذ أربعين سنة (على أحسن وجه) بسبب عدم استخدام الفيتو من قبل الصين والإتحاد السوفيتي. وكانت وراء هذا الآنبعاث الرائع ثلاثة أسباب:

أولا: أن العراق اقترف عدوانا واضحا لا يقبل النقاش، كما حصل في ألمانيا في الثلأثينا ت. الأمر الذي أعاد الى أذهان زعماء الدول فشل الأمن الجماعي يوم ذاك.

ثانيا: الشعور بأن فشل مبدأ الأمن الجماعي في التصدي لعدوان بهذا القدر من الوضوح يعني ان المبدأ لا يصلح لتأمين النظام في عالم ما بعد الحرب الباردة.

ثالثا: أن الدول الصغيرة في الأمم المتحدة أيدت التحرك لأن أغلبها يعاني من مشكلة حدود غير مستقرة في عهد الإستقلال من السيطرة الاستعمارية. وقد وجدت هذه الدول في ذرائع صدام حسين لغزو الكويت تهديدا لها هي الآخرى. وفي هذا الصدد قال مندوب هاييتي لدى الأمم المتحدة، على سبيل المثال لا الحصر، ان بلاده لا تريد ان تكون كويتا آخر للبعض.

هل سيكون مبدأ الأمم المتحدة للأمن الجماعي نظاما عالميا جديدا؟ نعم ولكن بصورة جزئية. فثمة مزايا ومؤهلات مهمة. أولها: ان نظام عمل الأمم المتحدة يتحرك بأحسن حالاته حين يكون هناك عدوان صريح لا يقبل النقاش. في حين يصعب تطبيقه في ظروف الحروب الأهلية. والثانية: ان الأمن الجماعي يتحرك إيجابيا حين لا يكون هناك استعمال لحق النقض (الفيتو). ولكن إذا

تقاطعت مصالح الولايات المتحدة – الإتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة – الصين جمد العمل بمبدأ الأمن الجماعي مرة آخرى. أضف الى ذلك ان مبدأ الأمن الجماعي، الذي تبنته الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥ ، لم يكن المراد تطبيقه على الدول الكبرى الخمس مالكة حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن. والثالثة: ان الأمن الجماعي يتحول الى فعل ملموس حين توفر له الدول الأعضاء التمويل اللازم، ولكن كيف لنا ان نتصور الأمن الجماعي فعلا حقيقيا إذا افتقد التمويل اللازم للدول التي تساهم بقوات عسكرية كبيرة.

لقد كان الأمن الجماعي فشلا بائسا في الثلاثينات ووضع في مجمدة أبان الحرب الباردة ثم انبعث حيا في حرب الخليج عام ١٩٩٠ وثبتت حاجة العالم إليه في عالم ما بعد الحرب الباردة.

ان للأمم المتحدة تأثيرات، حتى اذا لم يمكن تطبيق مبدأ الأمن الجماعي، لأن التحفظ عن استعمال القوة المدون في ميثاق الأمم المتحدة يلقي عبء تقديم المبرر المشروع على من يريد استعمالها. كما ان مناقشة مجلس الأمن للعنف الدولي يعطي زخما للقلق الجماعي ويركز الاهتمام في أوقات الأزمات. وأحيانا يبلور وجهات النظر باتجاه إدراك مدى ما يكلفه الاستخدام العدواني للقوة ويعمل كصمام أمان للجهود الدبلوماسية. وأخيرا فان دور قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام محدود لكنه مفيد جدا. فالمناطق الفاصلة منزوعة السلاح وما شاكلها أدوات وجدتها الدول تخدم مصالحها اكثر من مرة. ان انتهاء الحرب الباردة أتاح للأمم المتحدة فرصا اكثر فقامت بدورها في إنهاء استعمار ناميبيا ومراقبة انتهاكات حقوق الآنسان في السلفادور والآنتخابات في نيكاراكوا والوضع الحكومي بكمبوديا وفي الأشراف على قوات حفظ السلام. صحيح ان مباديء الأمن الجماعي الأصلية لا يؤخذ بها بالأمانة المفروضة إلا ان من الخطأ إلغاء دور القانون الدولي والأمم المتحدة وتأثيرهما. فهما جزء من حقيقة نظام الدولة الفوضوية. ومن الخطأ ان نكون شكوكيين أو سذجا للغاية في تعاملنا مع القانون الدولي والمنظمة الدولية. فالدول لا تحيا بالقانون وحده لكنها لا تستطيع العيش بدونه كليا.

الصراعات في الشرق الأوسط:

ان منطقة الشرق الأوسط، التي تمزقها النزاعات، حالة صالحة لدراسة الصراعات الأقليمية. واذا كان الوضع هناك يخدم وجهة نظر المذهب الواقعي في السياسة الدولية، فانه مكان لعب فيه القانون الدولي والأمم المتحدة دورا كبيرا أيضاً. ما سبب كل هذه الصراعات؟ لكل من النعرة القومية والدين وسياسة توازن القوى جزء من الرد على هذا السؤال.

الحرب العراقية – الإيرانية التي بدأت في أيلول عام ١٩٨٠ تعطينا مثالا جيدا على ذلك. لماذا غزا العراق جارته الكبرى؟ أحد الأسباب هو الثورة الإسلامية التي أطاحت بشاه إيران. في عهد الشاه كانت إيران تطالب بالسيادة على كل الممر المائي بينها وبين العراق. ولكن التمزق اعترى إيران بعدما أطاحت الثورة بحكم الشاه في العام ١٩٧٩ فوجد صدام حسين الفرصة سانحة للهجوم بالإضافة الى ذلك بدأت الثورة الإيرانية تسبب مشاكل داخل العراق. فالعراق المسلم يتاقسمه السنة (٤٠ ٪) والشيعة (٦٠٪) وصار غلاة الشيعة – الأصوليون – الإيرانيون يحثون الشيعة العراقيين على الثورة على صدام حسين ونظامه. غير ان هذا النداء الديني بين الشعبين فشل حين عمد صدام حسين إلى قتل العديد من زعماء الشيعة العراقيين. لكن صدام حسين أخطأ التقدير كعادته. فالإيرانيون ليسوا عربا وهناك أقلية كبيرة تتكلم العربية في إقليم أيراني ملاصق للعراق (عربستان) وظن العراقيون أنهم سيلقون استقبال المحررين في المناطق التي تتكلم العربية لكن ظنهم خاب وجاءت النتيجة معاكسة ذلك ان الهجوم العراقي وحد صفوف الإيرانيين.

هذان التقديران المغلوطان جملا الحرب تعجز عن إحراز أي تقدم فتحولت إلى كر وفر طويلين بدلا من الحرب الصاعقة القصيرة التي أرادها صدام حسين. وقرر العراق الأخذ بالآنسحاب من الحرب لكن إيران رفضت السماح بذلك. فمادامت قد تعرضت لعدوان فأنها ما كانت لتسمح لصدام حسين بالآنسحاب متى يشاء. فأعلن آية الله خميني، زعيم إيران الروحي، أن إيران لن توقف الحرب إلا بسقوط صدام حسين ونظامه البعثي في بغداد. ووقف العالم يتفرج طوال عقد من السنين تقريبا. ووقفت الدول العربية المحافظة، مثل السعودية والاردن، الى جانب العراق خوفا من القوة الثورية الإيرانية، ولكن سوريا العربية، حيث النظام علماني ورادیكالي يشبه النظام

العراقي في وجوه كثيرة، ساندت إيران لأسباب تتعلق بتوازن القوى. فقد كان تنامي قوة العراق المجاور ادعى الى قلقها من قوة إيران البعيدة.

الرأي العام في الخارج انحاز أيضاً الى هذا الجانب أو ذاك، فالولايات المتحدة، القلقة من تنامي قوة إيران، راحت تقدم المساعدات للعراق سرا. وشحنت إسرائيل الى إيران سرا أسلحة أمريكية، وان كان الأصوليون الإيرانيون يطالبون بإزالة إسرائيل. ويمكن فهم أسباب شحنات الأسلحة الإسرائيلية السرية لإيران من خلال اعتبارات توازن القوى. فإسرائيل تخشى العراق وإيران، لكن العراق تهديد أقرب أرضا. فقدمت إسرائيل مساعدات لإيران انطلاقا من المبدأ القائل "عدو عدوي صديقي". وهكذا نجد الحرب، التي بدأت من سوء تقدير له جذوره الدينية والقومية ووراءه مطامع ومصالح، طورتها اعتبارات توازن القوى الى صراع شرس امتد زهاء عشر سنوات.

مسائل القومية:

كيف تسبب النعرة القومية الحرب؟ وما هي القومية وما هي الأمة حقا؟ يعرف القاموس الأمة بأنه جماعة من الناس تدعي الهوية المشتركة والحق بإقامة دولة. ولكن أية أنواع من الجماعات البشرية يشملها هذا التعريف؟ وما هو مصدر الهوية المشتركة؟ كثير من الناس يدعون بأنها التماثل العرقي، لكن الولايات المتحدة أمة على ما فيها من تنوع عرقي. وآخر ون يقولون ان الدين يمكن ان يكون أساسا لأمة وثمة دول تقوم على الهوية الدينية الى حد كبير كإسرائيل وباكستان. النقطة الجديرة بالملاحظة ان من الممكن ان تكون هناك مصادر مختلفة للهوية. وفي هذا يقول المفكر الفرنسي (ارنست رينان Ernest Renan) ان العنصر الجوهري للأمة هو "ان يشترك أفرادها في أشياء كثيرة ولكن يجب عليهم ان ينسوا أشياء كثيرة أيضاً"[1].

مصطلح "القومية" دقيق لأنه ليس مجرد مصطلح وصفي بل توجيهي – تعبوي – أيضاً. وحين تكون الكلمات وصفية وتعبوية تصبح كلمات سياسية تستعمل في النضال من أجل السلطة. لقد أصبحت القومية مصدرا حاسما لشرعية الدولة في عالمنا الحديث. ومن هنا تصبح المطالبات

---

[1] مقولة للفيلسوف ارنست رينان **Ernest Renan** وردت في كتاب (القومية: معناها و تاريخها) للمؤلف هانز كون **Hans Kohn**(برنستن – ولاية نيوجيرزي – دار فان نوستراند ١٩٥٥) ص ١٣٧.

بهوية الأمة أدوات بالغة القوة. فإذا استطاع شعب جر الآخر ين الى قبول مطالبته بأن يكون أمة أمكنه المطالبة بحقوق وطنية واستعمال مثل هذه المطالبة سلاحا ضد أعدائه. مثلا في السبعينات نجحت الدول العربية في جعل الجمعية العامة للأمم المتحدة تتخذ قرارا باعتبار الصهيونية حركة عنصرية. وكان الغرض من ذلك المسعى حرمان إسرائيل من شرعية إطلاق اسم الأمة على نفسها. فالوسم بالعنصرية أمر سيىء في حين ان التسمي باسم القومية شيء حسن على وجه العموم. ان الدفع بعدم كون إسرائيل أمة قد استعمل الكلمات كسلاح.

المشكلة التحليلية التي تفرزها هذه الدعوى هي ان الدين يمكن ان يكون أساسا للهوية القومية. كذلك يصح القول ان الأساس الديني يجعل من الصعب على الاقليات خارج الدين اكتساب الهوية القومية.

ان الظروف أمام المسلمين في إسرائيل اصعب مما هي عليه أمام اليهود. كذلك اصعب أمام الهندوس في باكستان من المسلمين لكن هذا لا يعني ان الشعب إذا اعتمد الدين أساسا لهويته القومية أقام بذلك دولة عنصرية.

لم تكن النزعة القومية مهمة قط في القرن الثامن عشر فلماذا أصبحت المطالب القومية مهمة الآن؟ البشر، بأية حال، قادرون على الآنضواء تحت ولاءات عديدة – فوق مستوى الدولة أو دونه – وهذه الولاءات تتغير. وتميل الولاءات الى التغير حين تتعرض وتائر الحياة للاهتزاز. وغالبا ما تبدأ فكرة الأمة بالظهور حول أشد الوتائر تعرضا للاهتزاز، أي بين الناس الهامشيين من حيث العمق الثقافي والأقل تأكدا من انتمائهم القومي. وغالبا ما يكون هؤلاء أناسا لفظتهم الأطر الطبيعية فيبدأون بطرح الأسئلة. وغالبا ما تنطلق المطالب القومية من أوساط المثقفين أو الجماعات الدينية المنحرفة. مثال على ذلك ان القوميين العرب الأوائل في القرن التاسع عشر كانوا مسيحيين في الأغلب لا مسلمين. وشيئا فشيئا صار حماسهم لاكتساب هوية جديدة يلقى دعما من الصناعة وحركة التمدين اللتين راحتا تزعزعان أركان المجتمعات الريفية وولاءاتها التقليدية.

و يمكن للهزات التي تعبيء الناس باتجاه هويات قومية جديدة ان تصدر عن قوى داخلية أو خارجية. فالنزعة القومية الحديثة كانت الثورة الفرنسية وراءها الى حد كبير. وهز ظهور الطبقة

المتوسطة الأطـر السياسـية والاجتماعيـة التقليديـة فلـم تعـد الجماعـات السياسـية الناهضـة تريـد الاعتراف بالدولة الفرنسية من خلال الملك بل من خلال الأمة (الشعب برمته). أمـا خارجيـا فـان الجيوش النابليونية التي اكتسحت أوروبا هزت أركان المجتمع الأوروبي وحفزت المشـاعر القوميـة لدى الناطقين بالألمانية وغيرهم. ومع انقضاء نصف القرن اتسع نطاق الأيمان بـالفكرة القائلـة بـأن لكل أمة الحق بإقامة دولة لها. وتوج نجاح هذه الفكرة بتوحيد ألمانيا وإيطاليـا. المضحـك في الأمـر ان بسمارك كان رجلا محافظا لا يريد توحيد كـل النـاطقين بألألمانيـة بـل أولئـك الذيـن يسـتطيع ضمان ولائهم للعرش البروسي. لكنه تحـول الى داعيـة قومـي خدمـة لهـذا الغـرض. ثـم أصبحـت الوحدة الألمانية والإيطالية مثالين للنجاح يحتذى بهما.

أضعفت الحرب العالمية الثانية الإمبراطوريـات الاسـتعمارية الأوروبيـة وكـان إلغـاء الاسـتعمار إحدى الحركات الرئيسية في آسيا وأفريقيا على مدى العقود الثلاثة التالية. لقـد أضعفـت الحـرب نفسها مجتمعات العواصم الكبرى وبدأت الطلائـع المتنـورة في المنـاطق المسـتعمرة تسـتخدم الفكـرة القومية ضد الإمبراطوريات الأوروبية. ولكن لو كان نموذج الدول القائمة على وحدة اللغة والعـرق، في القرن التاسع عشر، قد استخدم لتنظيم عالم ما بعد الاستعمار لكان أدى الى قيام آلاف دويـلات الصغيرة في أفريقيا وأجزاء من آسيا. انما الذي حصل، في مرحلة مـا بعـد الاسـتعمار، ان الأوسـاط المتنورة – النخبة – راحت تؤكد على حق إقامة الدولة لخلق الأمة على عكس صيغة القرن التاسع عشر تماما.

و يبني الزعماء المحليون حجتهم على انهم بحاجة الى ماكنة الدولة التي أنشـأها المسـتعمرون – الميزانية، الشرطة، الجهاز الإداري – لإنشاء أمة من توحيـد الفئـات القبليـة الصغـيرة. وهكـذا نجد الأيديولوجيا القومية تستعمل لتبرير أمريـن تعـارضيين – ان تخلـق الأمـة الدولـة وان تخلـق الدولة الأمة – وذلك لأن القومية كلمة سياسية ذات فائدة ذرائعية.

يوم كانت حركات التحرر من الاسـتعمار، في عـهودها الأولى، تعـد رومانتيكيـة جـرى تعميـم ناجح على هذه الاختلافات بواسطة الدعوة الى تحرر الجميع , Pan Arabs , Pan Africa ، الخ.

فشهدت أوروبا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهور الدعوة لتحرر السلاف، القائلة بأن هناك هوية مشتركة تجمع كل الناطقين باللغات السلافية. وشهد الشرق الأوسط الحديث دعوة تحرر عربية ودعوة تحرر أفريقية. وكان مناهضو الحكم الأجنبي الأوائل يعتبرون المعاناة واحدة بالنسبة لكل الشعوب التي يحكمها المستعمرون وبالتالي فان على تلك الشعوب ان تجتمع تحت راية نضالية مشتركة أفريقية أو عربية. ولكن وصل الأمر إلى مسألة الحكم الفعلي ووجدت الحكومات الوطنية نفسها بحاجة الى أدوات الدولة من ميزانية وشرطة وجهاز إداري. ولم تكن الأدوات موجودة على نطاق شامل، بل على مستوى البلدان التي رسم المستعمرون حدودا لكل منها. ومع تلاشي الحماس الرومانسي التدريجي بدأت الهوية المنتسبة للدولة تحل محل الهوية الجماعية التي نادت بها حركات التحرر في البداية. ومع ذلك ظلت رومانسية الدعوة الى التحرر الجماعي قوة مربكة للتوجهات الإقليمية.

لقد شهد الشرق الأوسط دعوات مستمرة لجمع الصف العربي وحالات عرضية من إعلان دول فجأة، عن إقامة اتحاد بينها، كاتحاد مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ أو اتحاد بلدين بعيدين الواحد عن الآخر كاتحاد ليبيا والمغرب في عام ١٩٨٩. لكن القوى المساندة لتيار الدولة تغلبت، بمرور الزمن على تيار الحركات القومية الجماعية. ومن ذلك ان التيار القومي المصري المساند لفكرة الدولة قوي لدى الرأي العام تدريجيا على حساب الحركات القومية العربية. لكن هذه المسيرة التدريجية ما زالت بعيدة جدا عن خط النهاية فمناطق كثيرة من عالم ما بعد الاستعمار تشهد تمزق انساق الحياة الاعتيادية بدرجة شديدة بسبب التغيرات الإقتصادية والاتصالات الحديثة. ويحاول القادة السياسيون السيطرة على حالة عدم الرضا التي تسود عالم ما بعد الاستعمار. فيلجأ بعضهم الى مخاطبة المشاعر الوطنية ويستخدم البعض الشعارات القومية العربية ويستعين آخر ون بالنزعات الدينية الأصولية وكل هذه تسهم في زيادة تعقيد وتشابك القوى التي تخلق الصراع في مناطق مثل الشرق الأوسط.

الصراع العربي – الإسرائيلي:

أحدث الصراع العربي – الإسرائيلي ستة حروب بين جماعتين تؤكدان اختلافهما في الهوية، لكنهما يدعيان الحق في قطعة أرض صغيرة بحجم طابع بريد. المطالبة اليهودية ترجع الى أيام التوراة حين كان اليهود يسيطرون على المنطقة كلها قبل طردهم منها وتشريدهم في عام ٧٠ م. وفي العصر الحديث استفاد اليهود مما حصل لهم في الحربيين العالميتين الأولى والثانية. ففي الحرب العالمية الأولى وعدت الحكومة البريطانية (اللورد روتشيلد)، ممثل الإتحاد الصهيوني البريطاني، بأنها ستعمل على إنشاء وطن يهودي في فلسطين. ويقول الإسرائيليون ان الفظائع التي ارتكبها هتلر ضد اليهود في الحرب العالمية الثانية أثبتت صحة الحاجة الى إقامة دولة يهودية. وفي عام ١٩٤٨ كان المستوطنون مستعدين للقبول بتقسيم فلسطين لكن عرب فلسطين رفضوا ذلك. واعترفت الأمم المتحدة بالدولة اليهودية لكن الإسرائيليين اضطروا الى القتال لحمايتها من الهجمات العربية. ويقولون ان هذا هو الأصل التاريخي لدولة إسرائيل ومبرر وجودها.

رد العرب على هذه الدعوى بأنهم عاشوا في هذه المنطقة طوال قرون. ويوم صدر وعد بلفور، في الحرب العالمية الأولى، كان الفلسطينيون العرب يؤلفون ٩٠٪ من السكان في فلسطين. والحق أنه حتى عام ١٩٣٢ كان العرب في فلسطين حوالي٨٠٪ من النسبة السكانية.

و كانت حجتهم ان بريطانيا لاحق لها بإطلاق الوعود لليهود على حساب العرب. ويمضون قائلين ان اضطهاد اليهود إحدى الخطايا الكبيرة في التاريخ لكن الذي ارتكبها هم الأوروبيون فلماذا يتوجب على العرب ان يدفعوا الثمن؟ ان لكلا الطرفين نقاطا وجيهة.

في الحرب العالمية الأولى كانت هذه المنطقة تحت حكم الأتراك وقد تحالفت الدولة العثمانية مع ألمانيا. وبعد الهزيمة تفككت هذه الدولة وأصبحت المناطق العربية منها تحت انتداب عصبة الأمم. فحكمت فرنسا سوريا ولبنان فيما أطلقت بريطانيا على المنطقة المحصورة بين البحر المتوسط ونهر الأردن أسم فلسطين وما وراء النهر باسم "شرقي الأردن". في العشرينات زادت الهجرة اليهودية الى فلسطين ببطء ولكن الثلاثينا ت التي شهدت ظهور هتلر واشتداد الحملة المعادية للسامية في أوروبا شهدت أيضاً سرعة ازدياد هذه الهجرة. وبحلول عام ١٩٣٦ اصبح

اليهود يشكلون ٤٠ ٪ من سكان فلسطين. وهـذا التدفـق جعـل السـكان العـرب يثـورون. فشـكل البريطانيون لجنة ملكية أوصت بتقسيم البلد الى دولتين. وفي أيار ١٩٣٩ والحرب العالمية الثانيـة على الأبواب وجدت بريطانيا نفسها بحاجة الى تأييد العرب ضد ألمانيا الهتلرية فوعدتهم بتقييد الهجرة اليهودية. لكن فرض التقييد كان صعبا بعد الحرب. فقد تعاطف كثير من الأوروبيين مـع فكرة الوطن اليهودي من جراء الاضطهاد النازي. ونشط المهربون في إيصـال اللاجئـين اليـهود الى فلسـطين. يضـاف الى ذلـك ان بعـض المسـتوطنين اليـهود مارسـوا أعمـال إرهـاب ضـد الحكـام البريطانيين. ويومها كانت بريطانيا منهكة للغاية ماليا وسياسيا من جراء الحرب العالمية الثانيـة وإنهاء استعمارها للهند الذي أعلنته في خريف عام ١٩٤٧ لذلك قررت إحالة فلسطين الى وصايـة الأمم المتحدة.

في عام ١٩٤٧ أوصت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والمضحك المؤلم ، كما تبـين فيمـا بعـد ، ان التقسيم كان أفضل للعرب لو قبلوا به في ذلك الوقت. ففي أيار (مايو) ١٩٤٨ أعلنت اسـرائيل نفسها دولة مستقلة فقام جيرانها العرب بمهاجمتها في محاولة لالغاء التقسيم. استغرقت الحـرب الاولى بين العرب واسرائيل ثمانيـة أشـهر في كـر وفـر ومناوشـات. كـان العـرب أكـثر عـددا مـن الاسرائيين على ما هو بنسبة ٤٠ الى ١ لكنهم كانوا سـيئي التنظيـم يسـودهم الشـقاق والخلافـات وبعد وقف اطلاق النار ووساطة الأمم المتحدة الحقت المنطقة التي تدعى "الضفة الغربية" بـالاردن وسيطرت مصر على "غزة" لكن أغلـب الاراضـي الفلسـطينية كـانت تحـت سـيطرة الاسـرائيليين وحصلت اسرائيل اكثر بكثير مما كانوا سيحصلون عليه لو كان العرب قبلوا بمشروع التقسيم عـام ١٩٤٧.

احدثت الحرب طوفانا من اللاجئين الفلسطينيين وشعورا بالمهانة لدى العرب ومقاومة واسعة لفكرة سلام دائم. لم يرد العرب تقبـل نتيجـة الحـرب لأنـهم لا يريـدون اعطـاء مشـروعية لقيـام اسرائيل، معتقدين بأن الزمن سيكون حليفهم. واحتضن الزعماء العرب المشاعر الشعبية والاعتقـاد بأنهم سيقدرون على تدمير اسرائيل في حرب آخرى. والحقيقة ان الملك عبدالله الاول الذي اغتيل فيما بعد حاول توقيع معاهدة سلام مستقلة بين الاردن واسرائيل عام ١٩٥١.

وقعت الحرب الثانية عام ١٩٥٦، ففي عام ١٩٥٢ أطاح جمال عبدالناصر وعدد من الضباط الشباب القوميين بالملك المصري فاروق وسرعان ما تلقوا أسلحة من الإتحاد السوفيتي وناوروا من أجل السيطرة على قناة السويس. وانهكوا اسرائيل بسلسلة من هجمات الفدائيين. وقد رأينا من قبل ان بريطانيا وفرنسا ، اللتين غضبتا بشأن القناة واقلقهما احتمال سيطرة عبد الناصر علىالشرق الاوسط، تواطأتا مع اسرائيل على مهاجمة مصر. الا ان الولايات المتحدة رفضت مساعدة بريطانيا وانتهت الحرب بقرار من الأمم المتحدة ونزول قوة حفظ سلام للفصل بين الاطراف المتحاربة. ولكن لم توقع معاهدة سلام في ذلك الحين.

الحرب الثالثة، حرب الايام الستة، في حزيران عام ١٩٦٧ كانت الحرب الأهم لأنها رسمت مسار التطورات السياسية اللاحقة. استمر عبدالناصر والفلسطينيون بازعاج اسرائيل بغارات الفدائيين واغلقت مصر مضايق تيران قاطعة بذلك طريق الوصول الى البحر الأحمر بوجه السفن الاسرائيلية. لم يكن عبد الناصر مستعدا للحرب تمام الاستعداد، لكنه رأى شبح حرب سورية – اسرائيلية يلوح في الافق فظن ان الفرصة مواتية لدخول الحرب فطلب من الأمم المتحدة سحب قوات حفظ السلام من حدوده، واذ رأت اسرائيل عبدالناصر يستعد للحرب قررت ان لا تنتظر، بل توجه ضربة وقائية ساحقة فبادر الاسرائيليون الى تحطيم سلاح الجو المصري الرابض على الأرض. ولم يكتفوا باحتلال شبه جزيرة سيناء كلها بل أخذوا مرتفعات الجولان من سوريا والضفة الغربية من الاردن.

عندئذ تدخلت الدول الكبرى ضاغطة على الطرفين للقبول بوقف اطلاق النار. وفي تشرين الثاني عام ١٩٦٧ اصدر مجلس الأمن القرار ٢٤٢ القاضي بوجوب انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة مقابل السلام والاعتراف بها. ولكن كانت هناك تعمد وجود جوانب مبهمة في القرار المذكور. فلم ينص على كل الاراضي المحتلة بل ذكر الاراضي المحتلة فقط ، بما يوحي بأن بعض الاراضي ليست محتلة أصلا ولا يتوجب أعادتها. كذلك ترك امر الفلسطينيين مبهما، جاعلا منهم لاجئين في حين يجب الاعتراف بهم كشعب وأمة وهكذا بقيت المسألة الاساس بلا حل مرة آخرى.

الحرب الرابعة "حرب الاستنزاف" والتي كانت أخف وطأة. ففي الفترة ١٩٦٩ –١٩٧٠ نظم عبدالناصر، بمساعدة السوفييت، عمليات عبور لقناة السويس واعمال مضايقة آخرى، الأمر الذي أشعل حربا جوية بين مصر واسرائيل واخيرا وصلت الحرب الجوية الى طريق مسدود.

الحرب الخامسة كانت "حرب يوم التكفير" في تشرين الاول ١٩٧٣. خلف انور السادات عبد الناصر بعد وفاته. وأدرك السادات ان اسرائيل لا يمكن تدميرها، لكنه شعر بأن بعض الآنتصار النفسي ضروري قبل اتخاذ أية خطوة مصالحة باتجاه السلام. فقرر شن هجوم عبرالقناة، ولكن بلا محاولة لاستعادة سيناء كلها. وتواطأ مع السوريين وحقق هجوما مباغتا وسارت الحرب في مراحلها الاولى لمصلحة المصريين لكن الاسرائيليين عادوا فشنوا هجوما مضادا.

تدخلت الدول الكبرى مرة آخرى داعية الى وقف اطلاق النار. وذهب وزير الخارجية الأمريكي (هنري كيسنجر) الى موسكو وبينما هو هناك طوق الاسرائيليون الجيوش المصرية. وشعر السوفييت بأنهم كانوا موضع استغفال. فعبأوا قواتهم المتمركزة في جنوب البلاد وارسلوا رسالة الى الولايات المتحدة يقترحون فيها ان تتدخل الدول الكبرى بقواتها مباشرة وجاء الرد الامريكي برفع درجة التأهب النووي في البلاد فأسقط السوفييت طلبهم كذلك تراجع الاسرائيليون تحت ضغط أمريكي وفكوا الحصار عن الجيش المصري.

اعقبت الحرب سلسلة من المناورات الدبلوماسية فاوضت الولايات المتحدة خلالها على انسحاب اسرائيلي جزئي. ونشرت الأمم المتحدة مراقبين في سيناء ومرتفعات الجولان. غير ان النتيجة الأهم للحرب تآخر ت. وفي عام ١٩٧٧ ذهب السادات الى اسرائيل وأعلن ان مصر مستعدة للتفاوض على معاهدة سلام منفردة وفي عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩ أبرمت اسرائيل ومصر وبوساطة جيمي كاتر اتفاقات كامب ديفيد التي اعادت سيناء الى مصر ومهدت السبيل لمحادثات حول منح الضفة الغربية الحكم الذاتي. وكانت اتفاقات كامب ديفيد تعني ان اكبر دولة عربية قد خرجت من الإئتلاف المعادي لاسرائيل، وان الروح الوطنية المصرية تغلبت على النزعة القومية العربية. كسر السادات الإئتلاف القومي العربي، الا انه اغتيل بعد بضع سنوات على يد الاصوليين المسلمين الذين اعترضوا على سياسته.

الحرب السادسة تمثلت بغزو اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢. كان لبنان موضع توازن دقيق بين المسيحيين والمسلمين العرب. المسلمون ينقسمون الى سنة وشيعة ودروز. وكان لمنظمة التحرير الفلسطينية حضور كبير في لبنان والمسيحيون منقسمين أيضاً الى طوائف وأجنحة. كان لبنان يدعى جنة الاستقرار في الشرق الاوسط وكانت المنطقة الوحيدة التي كانت تعيش تعددية دينية وسياسية حقة.

و لكن الحرب الاهلية، التي مزقت وحدة لبنان، أتاحت الفرصة للتدخل الخارجي. فبدأت سوريا بالتحكم بشمال البلد وفي عام ١٩٧٨ دخلت اسرائيل جنوبي لبنان متوغلة حتى نهر الليطاني.

و في حزيران ١٩٨٢ قرر وزير الدفاع الاسرائيلي (آرييل شارون) التوغل الى أبعد من ذلك، في البدء أعلن ان اسرائيل ستتقدم مسافة ٢٥ ميلا داخل الاراضي اللبنانية لحماية المناطق الشمالية من اسرائيل ولكن القوات الاسرائيلية زحفت شمالا حتى وصلت الى بيروت وحاصرتها لمدة عشرة أسابيع. وأدى الحصار الى خروج منظمة التحرير من المدينة ووقع الزعيم المسيحي اللبناني (بشير الجميل) معاهدة سلام مع اسرائيل. ولكن سرعان ما اغتيل بشير الجميل وانهارت المعاهدة وهوى لبنان في المزيد من الفوضى. أخيرا في عام ١٩٨٥ انسحب الاسرائيليون من أغلب اراضي لبنان فيما استمروا باحتلال الشريط الحدودي الجنوبي. ولئن نجح الاسرائيليون بطرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت ومن لبنان فأن اسرائيل لم تحقق ما كانت تطمح اليه من وراء هذا الجهد. فقد تعرضت لهجمات الصواريخ من مختلف الفئات بجنوبي لبنان.

ان تجربة الشرق الاوسط تبين لنا ان الصراعات الاقليمية القائمة على العرق والدين والقومية تميل للتحول الى ضغائن يصعب حلها. فالمتشددون يعزز أحدهم الآخر. لقد تباطأت الدول العربية في تحقيق السلام لأنها لا تريد اعطاء شرعية للوجود الاسرائيلي وهي بموقف الرفض هذا قد عززت مواقع اولئك الاسرائيليين الذين لا يريدون سلاما مع العرب. لقد أقام المتطرفون ، في واقع الحال ، إئتلافا انتقاليا قيد الى حد كبير تحرك المعتدلين لايجاد تسوية. في عام ١٩٧٣ و١٩٧٧ غامر السادات وانتهى به الامر الى الاغتيال ثمنا لمغامرته وفي عام١٩٩٥ دفع إسحاق رابين حياته

على يد متطرف يهودي بسبب مواقفه من العملية السلمية. ففي عالم متطرفين كهذا يصعب الوصول الى الثقة والتعاون المتبادلين. وهنا تقدم "معضلة السجين" نموذجا غاية في الدقة لسياسات المنطقة.

في مرحلة الثنائية القطبية كانت الحروب في الشرق الاوسط تميل الى القصر لأن دور الدول الكبرى كان قوي الحضور. فكانت كل دولة كبرى تؤازر عملاءها ، من جهة، لكنها كانت تعمد الى ايقاف العملاء عند حد اذا تبين لها انهم قد يجرون الدول الكبرى الى حافة حرب نووية. كانت الضغوط باتجاه وقف اطلاق النار تأتي من الخارج. ففي عام ١٩٥٦ جاء الضغط من الولايات المتحدة من خلال الأمم المتحدة. وفي عام ١٩٦٧ استعمل كل من الإتحاد السوفيتي والولايات المتحدة خط الهاتف"الساخن" لغرض وقف اطلاق النار. وفي عام ١٩٧٣ تدخل الاثنان. وفي عام ١٩٨٢ ضغطت الولايات المتحدة على اسرائيل للانسحاب من لبنان. صحيح ان الحرب الباردة زادت من وطأة الصراعات الاقليمية في حالات كثيرة، الا انها كانت مثل شبكة أمان تحت تلك الصراعات. وبانتهاء الحرب الباردة تحولت الدول الصغيرة بانظارها الى الأمم المتحدة ملتمسة توفير شبكة للأمان، لكن مدى نجاح المنظمة الدولية بتوفيرها أمر متروك للمستقبل. ذلك ان الأمم المتحدة اجتازت أول امتحان لها غداة الحرب الباردة بعد غزو العراق الكويت عام ١٩٩٠.

حرب الخليج عام ١٩٩١ وما بعدها:

بدأت أزمة الخليج في ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠ ، يوم غزا صدام حسين الكويت وأقول غزو صدام حسين للكويت لانه الوحيد الذي اتخذ القرار وليس قادة الجيش العراقي كما هو معروف في الغزوات والحروب. كان العراق يدعي ان الكويت كيان مصطنع خلقه المستعمرون ويجب ان لا يكون دولة قائمة بذاتها. ففي عام ١٩٦١ حاول العراق بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم الاستيلاء على الكويت فردعته بريطانيا. لقد رأينا من قبل ان الرأي القائل بأن الحدود الاستعمارية لا معنى لها يحمل في ثناياه فوضى وخرابا شديدين للمناطق الآخرى من عالم ما بعد الاستعمار. وهذا يفسر رفض العديد من الدول الاعضاء في الأمم المتحدة التبريرات العراقية للغزو.

كانت هناك أسباب إقتصادية وسياسية دفعت صدام حسين الى اتخاذ موقفه هذا. فقد كان العراق محطما إقتصاديا بعد ثماني سنوات من الحرب مع ايران. وكان مدينا بقيمة ٨٠ مليار دولار تزداد بمعدل ١٠ مليارات سنويا كفوائد. وفي الوقت نفسه يجاور منجم الذهب – الكويت – الذي يملك احتياطيا نفطيا ضخما وعددا قليلا من السكان. يضاف الى ذلك ان العراق كان غاضبا من سياسة الكويت النفطية بسبب قراراتها بشأن زيادة صادراتها النفطية وتخفيض سعر النفط. وكانت حجة العراق ان الكويت تحايل على اتفاقيات الأوبك وان كل دولار يهبط من سعر برميل النفط يكلف العراق مليار دولار سنويا. لذا وجد في احتلال الكويت حلا لمشاكله الإقتصادية.

اما من الناحية السياسية فقد كان صدام حسين قلقا بشأن أمن العراق، معتقدا بأن الكل يريدون كسر شوكة بلده. ففي عام ١٩٨١ قصفت اسرائيل مفاعله النووية. ومع انحطاط الإتحاد السوفيتي بدا له ان الولايات المتحدة واسرائيل ازدادا قوة. وقد قال في خطاب له بعمان – العاصمة الاردنية – في شباط (فبراير)١٩٩٠ ان الإتحاد السوفيتي يتدهور ولم يعد قادرا على التصدي للأمريكان والاسرائيليين. واعتقد صدام حسين ان عليه هو القيام بالتصدي! فعمد الى عدد من التحركات أراد بها اختبار الامريكان. المثير للسخرية ان الولايات المتحدة كانت تحاول استرضاء صدام حسين لاعادته الى المجتمع الدولي واستخدام العراق كوسيلة توازن فعالة ازاء قوة ايران في المنطقة. لقد ضللت السياسة الامريكية المتضاربة صدام حسين فاعتقد بأنه يستطيع المضي بغزو الكويت دون ان يتعرض لاجراءات انتقامية خطيرة. وكان مخطئا في ذلك أو أساء التقدير كما هو معروف عنه. فأصدرت الأمم المتحدة سلسلة من قرارات تستلهم مبدأ الأمن الجماعي ضد العراق. فلماذا تصرفت الولايات المتحدة والآخر ون بهذا الشكل؟ أحدهم يقول ان النفط كان وراء كل ما حدث. لا شك ان النفط جعل منطقة الخليج منطقة مهمة بدرجة مخيفة لكن الازمة اكبر بكثير من مجرد النفط. فبريطانيا ، مثلا، اشتركت في الحرب بدرجة كبيرة في حين أنها لا تستورد أي نفط. وهناك أيضاً القلق بشأن الأمن الجماعي واصداء فشل التصدي للعدوان في الثلاثينا ت. ثم هناك البعد الثالث: الحرب الوقائية كان صدام حسين يبني اسلحة دمار شامل. ولديه برنامج اسلحة نووية يستورد له المواد اللازمة سرا. ولديه اسلحة كيمياوية وهناك شائعات

بأنه يملك اسلحة جرثومية. فاذا ما اصبحت لديه عائدات الكويت النفطية ، الى جانب هذه الاسلحة، وجد العالم نفسه أمام تهديد عراقي أوسع وأقوى وأشد تدميرا خلال العقد التالي من السنين. وقد وجد البعض ان الحرب يومذاك أفضل منها بعدئذ ان كان لا مفر منها. لكن آخر ين اعتبروا الحرب غير ضرورية لأن العقوبات الإقتصادية كفيلة بجعل العراق يسحب قواته من الكويت. اما الحقيقة المغايرة لهذا التخريج او ذاك فيصعب أثباتها. فمن المستحيل معرفة ان كانت العقوبات الإقتصادية ستفعل شيئا لو ان قوات تحالف الأمم المتحدة أمسكت عن التحرك سنة أو أكثر وثبت الحصار الإقتصادي على العراق منذ عام ١٩٩٠ بانه كان فاشلا وبدون جدوى. واخيرا اخذت الحرب شهرا من الزمن قبل ان ينسحب العراق من الكويت. في تشرين الاول من عام ١٩٩٠ استنتجت ادارة بوش ان العقوبات الإقتصادية ما كانت لتنفع. وفي تشرين الثاني ضاعفت الولايات المتحدة قواتها في السعودية تمهيدا للحرب. فلماذا لم يهرب صدام حسين في اللحظة الاخيرة قائلا انه سينسحب او يجد مخرجا آخر؟ أحد ألاسباب انه أخطأ التقدير حين توهم ان الولايات المتحدة لا تطيق تقديم خسائر بشرية جسيمة كما قال للسفيرة الامريكية في آب (اغسطس) ١٩٩٠. وفي هذا التقدير كان ضحية ردود فعل الحرب الفيتنامية. السبب الآخر قد يكون الكبرياء حيث انه لم يكن يقدر علىالتراجع بعدما أحتل قلب مسرح السياسة العالمي.

أحيت الحرب مبدأ الأمن الجماعي وقد تكون عامل ردع لحوادث آخرى من هذا النوع، لكن هناك كما رأينا من قبل، أسئلة تتعلق بمدى خصوصية هذا الصراع الاقليمي.

لقد دمرت الحرب قدرة العراق على انتاج أسلحة الدمار الشامل قبل وصولها الى درجة الاستعمال وجاء وقف اطلاق النار بسابقة سمحت لمفتشي الأمم المتحدة بزيارة العراق وتدمير وسائله لانتاج الاسلحة النووية والكيمياوية. ولكن الحرب احتوت الصراعات المنبعثة من السياسات الوطنية المتناثرة ومجتمعات الشرق الاوسط المحلية الضعيفة.

و مع ذلك، فغداة الحرب حققت الحكومة الاسرائيلية ومنظمة التحرير الفلسطينية تقدما كبيرا في طريق السلام وتطبيع العلاقات. فاستخدمت ادارة بوش نفوذها الذي كسبته من الحرب في الضغط على المنظمة وحكومة اسحاق شامير والحكومات العربية للاجتماع بالعاصمة الاسبانية

(مدريد) اوآخر عام ١٩٩١ وفي واشـنطن عـام ١٩٩٢. وبينمـا وصلـت هـذه المحادثـات الى طريـق مسدود كانت المفاوضات بين مسؤولي الحكومة الاسرائيلية ومنظمة التحرير تجـري وراء الكواليـس في العاصمة النرويجية (أوسلو) وتمخضت عن اتفاق بين منظمة التحرير وحكومـة اسـحاق رابـين. وتلت الاعلان سلسلة اتفاقيات لانسحاب القوات الاسرائيلية من قطاع غـزة ومـدن وقـرى الضفـة الغربية الفلسطينية. واعترفت اسرائيل بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا للشعب الفلسطيني. وسـلمت مقاليد الحكم الذاتي، بما في ذلك المسؤوليات الأمنية، الى ياسر عرفات والمنظمة بعـد عـام ١٩٩٤ وعلى مراحل عدة.

في الوقت نفسه توصل الملك حسين الى معاهدة سلام مع حكومة رابين وقعت في واشـنطن عـام ١٩٩٤. فخـلال حـرب الخليـج راوغ الاردن في اعـلان تـأييده للتحـالف الـذي تقـوده الولايـات المتحدة. ووجد الملك حسين رحمه الله ان تطبيع العلاقات مع اسرائيل كفيل بأن يعيد اليـه رضـا الولايات المتحدة والدول النفطية في الشرق الاوسط واقصد بها الخليجية. وكانت منظمـة التحريـر قد أيدت صدام حسين اثناء حرب الخليج ونتـج عـن هـذا ان خسـرت التبرعـات السـخية الـتي كانت تتلقاها من الكويت والسعودية والدول العربية الآخرى. وامام ضائقتـها الماليـة اضطـرت الى تخفيف معارضتها للتسوية السلمية.

و مع ذلك يظل الباعث للصراع في الشرق الاوسط قائما. فالرأي العـام الاسـرائيلي ظـل بعيـدا عن الرضا على مفاوضات السلام وسياسة التخلي عن الاراضي المحتلة أي الارض مقابل السـلام. واعتبر غلاة المحافظين الاسرائيليين اسحاق رابين خائنا واغتيل الرجل في اوآخر عام ١٩٩٥.

كان أغلب الفلسطينين ينظرون الى حكومة المنظمة وياسر عرفات على أنـهم فاسـدون وميـالون للطغيان ولذلك تحولوا بمؤازرتهم الى جماعات المعارضة مثل حركة حماس الدينية المتطرفة، التي سعت وتسعى الى عرقلة عملية السلام. وقد كان لتفجيرات القنابل التي نفذتها الجماعات العربية المعارضة لعملية السلام تأثيرات على الآنتخابـات الاسـرائيلية عـام ١٩٩٦. ان حكومـات المنطقـة على امتداد منطقة الشرق الاوسط تواجه تحديات داخلية يهدد أغلبها بنشوب حرب أهليـة كمـا حصل في الجزائر والسودان.

ان تطورات ما بعد حرب الخليج تعكس نفس آليات الفرد والدولة والنظام الدولي التي رأيناها في صراعات آخرى. فنجد على أحد المستويات ان افرادا مثل ياسر عرفات ورابين والملك حسين هم الذين يقررون ان تكون هناك اتفاقيات سلام او لا تكون. ومع ذلك لم يكن لعملية كهذه ان تؤدي الى نتائج ملموسة لو لم تحدث حرب الخليج تغيرات في النظام الدولي. كذلك ساهمت الضغوط الداخلية على حكومات هذه الدول، كألازمة الإقتصادية التي تعرض لها الاردن، في الوصول الى هذه النتائج.

كثيرا ما تتصرف دول المنطقة بطريقة تتفق مع النموذج الواقعي في السياسة الدولية ساعية الى القوة والأمن بالتنافس مع الدول الآخرى لكن القانون الدولي والمنظمات الدولية ساعدت في تحديد شكل النضالات السياسية ، مثلما فعل الممثلون الافراد، وتظل في الوقت نفسه قضايا كالدين والطائفية والقومية والتخلف الإقتصادي وضغوط النمو السكاني تعمل على جعل منطقة الشرق الاوسط منطقة من اكثر مناطق العالم استعدادا للتفجير السياسي.